

اعتراف منتصف الليل

چورچ ديهامل



2

تعريب : شكرى محمد عياد



الهيئة العامة لقصور الثقافة



آفاق عالمية

أفاق عالمية
أغسطس ٢٠٠١

٢



الهيئة العامة لقصور الثقافة

اعتراف منتصف الليل

تأليف: جورج ديهافل
تعريب: شكرى عياد
تصدير: محمود عبد الوهاب

● لوحة الغلاف : «النبي» من أعمال إميل تولده (١٩١٢)

(١٨٦٧ - ١٩٥٦)

● التصميم الأساسي للغلاف :

عمر جهان

آفاق عالمية : سلسلة تُعنى بنشر ترجمات مختارة

رئيس مجلس الإدارة
محمد غنيم

أمين عام النشر
محمد السيد عيد

المشرف العام
فكرى النقاش

رئيس التحرير
طلعت الشايب

سكرتيرة التحرير
تغريد كامل إمام

المراسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالى :

١٦ أش أمين سامى - القصر العينى - رقم بريدى : ١١٥٦١

نصٌ عربيُّ الروح واللسان

محمود عبد الوهاب

عشت من عمرى زمنا طويلا وها قد شارفت على الستين
ويمكننى أن أقدر - بلا تردد - أنه ليس فى كل حياتى ما أفخر به
سوى أنى جلست يوما على مقعد التلميذ فى حضرة الدكتور
شكرى عياد: الأديب الناقد الباحث المترجم الأستاذ، والأستاذية
هنا ليست فحسب أعلى ذروة بلغها خلال عمله مدرسا بكلية
الآداب جامعة القاهرة، إنها عنده قيمة علمية وفكرية وأخلاقية
وحضارية، ومنهج فى التدريس لا يصنع من التلاميذ جمهورا
من التابعين، وإنما يحرضهم على الاستقلال عنه والاختلاف معه
والاجتهاد حتى يكتشف كل منهم ما يميزه عن كل الآخرين وما
يتفرد به.

كانت الحرية عند الدكتور شكرى هى حجر الزاوية فى

منظومة قيمه، وكان امتلاء الفرد بذاته المستقلة الواعية الفاعلة هو الخطوة الأولى على درب جدارته بالحرية.

وفى تقديرى أن الدكتور شكرى لم يتحمس لتعريب رواية جورج ديهامل «اعتراف منتصف الليل» إلا لأنها استلت خيطا عاديا من ملايين الخيوط التى تصنع ذلك الكائن الهلامى الغامض الذى نسميه الأمة أو الشعب أو الجماهير أو الطبقة .. إلخ، ثم عكفت على استخلاصه من بين ملايين النكرات والكومبارس والكائنات الأرقام لتكشف لنا عن ملامح تفرد، وهى ملامح لن تراها عين لا ترى سوى المظهر الخارجى لسلوك بطل الرواية الصامت المنطوى الخجول، وإنما تكشف عنها حياته الباطنية الحافلة بالانفعالات والأفكار والهواجس والنوايا والاندفاعات الشهوانية والمشاريع التى تختلط فيها الأحلام بالأوهام.

إن تعريب الدكتور شكرى عياد لهذه الرواية ليس إنجازا مهنيا، أو اختيارا صنعتة صدفه الإعجاب الفني بالرواية، لكنه فى حقيقة الأمر لبنة فى مشروع الفكرى والفلسفى الذى دأب على بنائه بالقصة القصيرة والرواية والدراسة الأدبية والمقال والسيرة الذاتية والنقد الأدبى.

ولعل إدراك هذه الحقيقة هو ما يكشف لنا سر احتشاده
بكل وعيه وخبراته وعلمه بأسرار اللغة العربية كي يجعل من هذا
النص الأجنبي إبداعاً عربياً خالصاً.

لقد حرص على تعريب الرواية في صياغة توفر للقارئ
العربي - بالاختيار الدقيق للكلمات بكل أبعادها الدلالية
والصوتية، وباتساق الجمل والفقرات، وبالإيقاع الذي يعلو حيناً
ويهبط حيناً - نصاً عربياً يجسد الحالة النفسية والعصبية
والوجدانية لبطل الرواية العامل العاطل العازف المثقف: يجسد
تعاسته وحرزته وبؤسه وخجله من بطالته، ويجسد خجله
وانطوائه وسخطه على رعونته وفشله وقلة حيلته، ويجسد
سعادته بحبه الصامت ونشوته بكلمات قليلة بل ونادرة امتدحت
يوماً عزفه وطيبته فتحوّلت إلى بلسم يداوى كبرياءه الجريح.

إن القارئ العربي لهذا النص الجميل لن يشعر لحظة واحدة
أنه يقرأ نصاً أجنبياً الروح واللسان، فقد استطاع الدكتور
شكري بحسه الأدبي وخبراته أن يجعل منه نصاً ينتمي
لجماليات النثر العربي، نصاً تترقرق فيه نغمات من موسيقى
العبارة العربية، وإيقاعات من الشعر العربي ، وأصداء من بلاغة
القرآن الكريم.

تقديم

لا أعرف كاتباً صور محنة الفردية فى هذا العصر كما صورها جورج ديهامل. ولك أن تقول: محنة الفردية، أو محنة الفرد، حسبما يحلو لك من رغبة فى التجريد الفلسفى أو التخصيص الإنسانى.. وأنت مصيب على الحالين، فهى محنة يعانيها الأفراد المثقفون اليوم، لا فى فرنسا وحدها بل فى كل بلد مسته الحضارة الصناعية والإنتاج بالجملة. ومصدر هذه المحنة إحساس هؤلاء المثقفين نوى الذكاء اللامع أو الإحساس المرهف أو الخيال الوثاب، بأن هذا المجتمع الحديث لم يعد محتاجاً إلى ذكائهم اللامع ولا إلى إحساسهم المرهف ولا إلى خيالهم الوثاب، بل لعله ينظر إلى هذه الأمور التى كانت تعدّها الإنسانية من قبل ميزات نظرة الشك والارتياب، لأنها أصبحت تعد فى دنيا العمل عوائق ومعطلات.... وهم يلاقون من ذلك عناء

غير قليل، حتى ليضطرون إلى إحدى اثنتين: إما أن يستبدلوا بذواتهم الحساسة ذواتاً أخرى أشبه بالآلة في انتظامها ودقتها، وأكثر انطباقاً على ما يتطلبه المجتمع الحديث، وإما أن ينسوا أنهم أفراد، ويلقوا بأنفسهم إلقاءً في جيش الساخطين على هذا المجتمع، المعبدين العدة لتغييره وفق ما يتراعى لهم أنه الحق والصواب. وهم على الحالين لا يستطيعون الاحتفاظ بفرديتهم، وقلما ينجون من هذا القلق الذى ينوشهم من كل جانب، وقلما يصلون إلى حالة من السلام النفسى الذى ينشدونه. وأكثرهم ينطوون على أنفسهم، ويجترون إحساساتهم، ويطعمون أحلامهم وآلامهم، وربما وجدوا فى الألم لذة أكبر، لأنه لا يلوح لهم بأشياء مستحيلة، ولا يعرضهم لخيبة قاسية.

هذه الفرقة من الناس، إذاً، ظاهرة بارزة فى الحياة الإنسانية لعصرنا الحاضر، يعنى بها علماء الاجتماع، وعلماء النفس، والفلاسفة، والأخلاقىون، والأدباء، والفنانون ولعل مما يزيد عنايتهم بها أن هذا الفريق من الناس هم الجمهور الأكبر من قراء الأدب والفلسفة وأهل الفكر، ومتذوقى الفن، فكأن رجال الفكر والفن إذ يعالجون مشاكل هذا الفريق من الناس إنما يعالجون مشاكلهم هم أنفسهم فى نطاق أوسع، وكأن هذا

الجمهور إذ يطالع ما يكتبه له الأدباء والمفكرون إنما يطالع نفسه بين السطور.

كتب جورج ديهامل سلسلة من خمس قصص تدور كلها حول محنة الفردية في العصر الحديث، أى حول التنافر بين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومجتمعه، وابتدع في هذه القصص شخصية «سلافان»، وهى شخصية لا تقل حياة ولا صدقاً ولا عمقاً عن شخصية «هملت» أو «دون كيشوت». هى شخصية ذلك المثقف المرهف الحس الذى يلفظه المجتمع الحاضر، على أن ديهامل لا يتخذ بطله من أولئك المثقفين ذوى الثقافة العالية المنظمة، وإنما هو رجل من عامة الشعب، لم ينل ما اصطلح الناس على تسميته بالثقافة العالية ولا الثقافة الثانوية، ولكنه قرأ كثيراً وفكر كثيراً. يقول لصديق: «إننى فقير، وقد كنت فقيراً دائماً، فدرست كما يدرس الفقراء، أعنى أننى درست دراسة فقيرة. وقد ألمنى ذلك وبخاصة فى السن التى يتألم فيها المرء لمثل هذه الأمور. ثم أخذت أثقف نفسى بنفسي، وعلى قدر استطاعتي، فأنا أعلم اليوم أكثر مما يعلمه غالبية البورجوازيين فى مثل سننى، ولكن الراجح أنى لم أتعلم هذه الأشياء بطريقة منظمة كما تقول. ومن ثم لا يعدنى الناس مثقفاً. وأصدقك القول إننى مستنى العدوى

من أفكار الناس عنى فأصبحت أشك أنا أيضاً فى ثقافتى. إنها
لثقافة طيبة لا تخلو من رسوخ وغنى، ولكنها ليست ثقافة
«أصيلة» لا ضير! إنى مثابر على القراءة».

وهو يقضى سحابة نهاره فى بعض تلك المكاتب التى تؤوى
عشرات أو مئات من طبقة يؤدون أعمالاً تافهة. وهو مشغوف
بالموسيقى. غير أنه يقول: «ولكنى حين أجاهد التى لا يبدو على
أننى أفهم شيئاً مما أوقعه، على حين أن أودين مثلاً - وهو ينفخ
فى الناي أيضاً - أودين هذا الذى لا يفهم شيئاً من الموسيقى،
ولكن له أصابع متمرنة، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب
الوجدان!».

وقد تسأل: لماذا جعل ديهامل بطله مثقفاً عامياً وفناناً عاجزاً،
ولم يجعله رجلاً ممتازاً فى ثقافته أو فنه؟ ألا يكون فى هذه
الصورة الأخيرة أصدق تمثيلاً لمشكلة المثقفين فى هذا العصر؟
ولكننى أذكرك بأمرين اثنين: أولهما أن ديهامل لا يعالج مشكلة
المثقفين الممتازين بوجه خاص، بل مشكلة كل من يتغلب فيهم
جانبا الفكر والوجدان على جانب العمل، وطبيعى ألا يبلغ هؤلاء
جميعاً رتبة العبقريّة. والأمر الثانى أن القصة والأدب على
العموم قد اتجه وجهة شعبية منذ ظهر المذهب الواقعى فى الأدب

واتخذ موضوعاته من الحياة العادية - حياة الناس العاديين. لم يبق الأدب تصويراً لحياة الأبطال وصراعاتهم، بل أخذ أشخاصه من زحمة الحياة العادية التي تعج بشتى صنوف المآسى والمساخر. ولعل هذا هو الأثر الخالد للمذهب الواقعى فى التراث الأدبى الإنسانى، فما أظنه قد أصبح فى استطاعة الأدب فى حاضره أو مستقبله أن يترفع عن مشاكل جماهير الناس مهما تكن طبقتهم أو ثقافتهم أو نحلتهن، ولا أن ينتزع العواطف الإنسانية من مجالها الطبيعى، ليضعها فى إطار من العظمة المصنوعة. وقد ظهر المذهب الطبيعى وعميده زولا بعد المذهب الواقعى، فزاد هذا الاتجاه بالأدب نحو الشعب قوة ووضوحاً. فديها مل محافظ إذأ على تراث الأدب الفرنسى الخالد، وهو فى الوقت ذاته دقيق الإحساس بالمشكلة التى يعالجها حين يختار بطله نكرة من النكرات، أو كما يقول هذا البطل عن نفسه: «رجلاً لا يختلف فى شىء عما ألفه الناس، رجلاً يشبه كل الرجال إلى حد مخيف!».

ظهرت قصتنا Confession de Minuit - وهى الأولى من مجموعة سلاقان - سنة ١٩٢٠، ثم تلاها «رجلان» Deux Hommes سنة ١٩٢٤، و«يوميات سلاقان» Journal de Salavin

سنة ١٩٢٦، و «نادى ليونيه» Le Club des Lyonnais سنة ١٩٣٢ .
١٩٢٩، وأخيراً : «كم هو» Tel Quen Lui - meme سنة ١٩٣٢ .
حلل ديهامل فى القصة الأولى عناصر التناقض بين الفرد
ومجتمعه، وبين واقع الفرد وآماله، وبين أفكاره وأعماله. صور
ذلك كله منعكسا على ذهن سلافان، فهو لا يقص أحداثاً، بل
أفكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث، فهي أحداث
بالنسبة لصاحبها، وهي مغامرات حقة تمسك أنفاسك وأنت
تقرأوها.. أحداث هذه القصة لا تعدو أن سلافان يفصل من
عمله التافه إثر حادثة يحسبها الناس حمقا وشذوذاً ويراهم هو
عملاً ضرورياً يرد إليه ثقته بأنه إنسان يعيش بين أناسى. وليس
بعد ذلك إلا البطالة والتشرد والفاقة، وأحلام الحرمان، وأوهام
القلب الوحيد.

وفى القصة التالية «رجلان» نرى سلافان الصديق.. نراه فى
ضوء تلك الصلة النفسية العميقة التى تكشف من أسرار
النفوس ما لا تكشفه الأفكار ولا الأحلام ولا الأوهام: وصديقه لا
يشبهه فى شىء من الأشياء. إذا كان سلافان مثال الرجل الذى
لا ينسجم فكره وعمله فأدوار مثال الرجل الذى يقيس فكره على
قدر عمله. وإذا كان سلافان مثال الرجل الساخط على وجوده

فإدوار مثال الرجل الراضى عن وجوده. وإذا كان سلاقان مثال الرجل الخائب الذى يزداد انحداراً كل يوم فإدوار مثال الرجل الناجح الذى يزداد كل يوم صعوداً. إدوار هو على الجملة صورة حية للمجتمع الحديث، هو الرجل الذى تخضع حياته لنظام لا يحيد أو لا يكاد يحيد. هو الرجل الذى يترجم جميع أفكاره إلى أعمال، وجميع دوافعه ونوازعه إلى مصالح. هو الرجل الذى تنسجم رغباته مع واقع الحياة، حتى لتحار: أيهما يستجيب للآخر.. أهو كيف وجوده طبقاً لواقع حياته، أم هى أحداث الحياة تنساق وراء رغباته؟ يعرف سلاقان من مطعم كانا يترددان عليه، وكأنه يحس فيه ضعفاً وعجزاً عن المضى فى تيار الحياة الزاخر، فيود لو يسنده بذراعه القوية، ليزداد التذاذاً بقوته... ويقبل سلاقان - بعد تردد - هذه اليد الممدودة إليه، ويبذل له الصديق من جاهه وماله، ويقبل سلاقان هذه الهبات أيضاً، ولكن على حساب كرامته وكبريائه، حتى إذا ضاق صدره بعد سنين طوال من هذه الصداقة غير المتكافئة، ثار على ما ألقى فيه من عبودية، وفارق صاحبه فراقاً غير جميل.

والقصص الثلاث الأخيرة تصور صراع سلاقان لتحقيق فرديته، فإنه لم يحدد بعد مطلبه من الحياة، وإنما كانت نفسه

أشبهه بصندوق رنان، كل عمله أنه يضخم الذبذبات التي تصل إليه من الخارج. ولكنه قد بدأ يحس نزوعاً إلى إكمال نفسه، فصاحبه يقول له قبل أن يفارقه: «ما بك؟» فيجيبه: بى كل ماليس بى.. أشياء لا تستطيع أن تمنحنى إياها يا إدوار.. السلام. السعادة. روح خالدة. الله..»

ويعود سلافان إلى وحدته المريرة اللذيذة. ويستدبر أعوامه الأربعين، وقد شغل بتحديد وجهته فى الحياة. فهو يقول عن حياته فى تلك الأعوام: «أربعون سنة ولم أفعل شيئاً! أعنى أننى لم أقض شيئاً ولا أتممت شيئاً.. ولو مت هذا المساء ما استحققت أن يذكر اسمى على لسان، ولا أن تبقى صورتى فى ذاكرة. ليتنى لا أموت هذا المساء! دعاء أرفعه إلى الفضاء، ولنقل إننى أسأل القدر، مادمنا لا نعرف غيره، فما أظن أن الدعوة الحارة لا تجد صدى ولو لفظت فى الصحراء». وهو ينظر فى أمره كله ويقلبه على جميع وجوهه، حتى إذا استقبل عامه الأول بعد الأربعين كان قد استقر عزمه على أن يتأله، أو يكون قديساً، فهو يبدأ «يوميته» ليسجل خطواته فى هذا السبيل.

ولكنه لا يؤمن بالدين. فهو لا يريد أن يكون قديساً كقديسى الكنيسة، بل يريد أن يحيا حياة القديسين، يريد أن ينعم بلذة

الفضيلة، يريد أن يرفع الفضائل النفسية - في ذاته هو - إلى أوج من العظمة. وهو يرى أنه بهذا يفي بحاجة من حاجات العصر: يفي بحاجته إلى قديسين، فقد كان لكل عصر قديسوه، ولكنه لا يرى لهذا العصر قديسين.

ويأخذ في جهاد نفسه جهاداً منظماً، يدونه في «يومياته»، وكلما خرج من معركة من هذه المعارك النفسية وجد نفسه مريضاً أو مستغلاً أو محتقراً.. ووجد أنه لم يبلغ من فضائله المنشودة شيئاً. ذلك لأن قديسى العصور القديمة كانوا يمارسون فضائلهم معتمدين على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر، كانوا يعتقدون أن الحق في جانبهم وأن الله معهم، فكان في أفعالهم ثقة واطمئنان وجلال. أما هو فلا يؤمن بقوة خارج نفسه، ولا يبحث في جهاده إلا عن نفسه، ففضائله تبدو سخيفة مضحكة إذ يعوزها الوسط الذى لا تعيش وتنشط إلا فيه، وكأنما هو رجل يحرك شفتيه بالغناء فلا يتجاوز غناؤه حنجرته.

ويتمنى سلاقان أن يؤمن، ويرتاد الكنائس، ويعترف، ولكنه لا يحس في هذه التجارب كلها شيئاً من الصدق، إنما هي حركات وأقوال لا تصدر من قلوب قائلها، ولا تصل إلى قلوب سامعها. هي أشبه بالبقايا المتحجرة من عصور إنسانية بائدة. ويكتب

إلى قس بروتستنتى يسأله النصيحة لروح ضالة، فيكتب إليه كتاباً موجزاً ذا رقم وتاريخ، ويحدد له ساعة يلقاه فيها بعد أسابيع.. ويقابله فى مكتب كمكاتب رجال الأعمال، وإذا هو أمام قس يرشد الأرواح الضالة «بالجملة»، على طريقة الإنتاج بالجملة ويرد الإيمان إلى النفوس الحائرة بأحدث أساليب التحليل النفسى.

لا يستطيع سلاقان، إذاً، أن يكون قديساً. وتنتهى هذه التجربة الأليمة بمرض طويل فى مستشفى مجانى، دخله إثر حمى أصابته لأنه قدم معطفه وحذاءه - فى الشارع وفى ليلة من ليالى الشتاء - إلى أفاق لئيم، لم يجد ما يعطيه إياه فأثر أن يقدم إليه كساءه على أن يحتمل نظرة الشك التى صوبها إليه. ويخرج سلاقان من المستشفى وقد أكسبته هذه التجربة نوعاً من الهدوء، ولكنه مازال يبحث.. يبحث بالمعنى المطلق لهذا الفعل، كما يقول، ويهديه البحث إلى «نادى شارع ليونيه»، وهو ليس بناد على الحقيقة، وإنما هو حانوت إسكاف فقير يجتمع فيه بعض الشيوعيين الثوريين الذين يدعون إلى مجتمع جديد، يجتمعون فيه خفية ليتباحثوا فى مشاكلهم ويدبروا أمورهم، وإن كنا لا نعرف ماذا يدبرون بالضبط لأننا نراهم بعينى سلاقان.

وليس سلاقان واحداً منهم وإنما هو فى اصطلاحهم «عاطف»، وكما يقول أحدهم: «من أولئك المثقفين الذين ينزلون إلى الشعب. طراز ١٩٠٠»، فهم لا يطلعونه إذاً على كثير من أسرارهم، ولكنه يفهم أنهم يطمحون إلى حياة أسعد، ويراهم يعيشون عيشة خشنة، ويعلم أنهم يلاقون ألوان الاضطهاد، ونفسه نزاعة إلى السمو، ذواقة للألم، فبينما هو يفكر أن يلقى بنفسه فى تلك النار يعلم من أمرهم ما لم يكن يعلم، فهم ثوريون فنيون، ولا يبالون كثيراً بالفرد، لأن همهم تغيير المجتمع، عندئذ تنفر منهم فرديته فيقول لهم: إننى لا أسمح لنفسى بانتقادكم وأغلب ظنى أنكم ما دمتم مقدمين على هذا الأمر فثم ما يدعوكم إلى ذلك. ولكنكم تستطيعون أن تغيروا ما يسمى النظام، وتستطيعون أن تخلفوا الطبقة الحاكمة، تستطيعون أن تغيروا كل شىء ولكنكم إذا لم تغيرونى أنا - أنا سلاقان مثلاً - فإنكم لم تغيروا شيئاً!.

فإذا سأل سائل منهم: «ولماذا تلح هكذا فى تغيير نفسك؟» أجاب فى صوت خفيض ولكنه واضح يسمعه الجميع «لأنى.. لأنى جبان..»

ويعكف وحده على هذه الفكرة يديرها فى نفسه حتى ينتهى فيها إلى نوع من الفلسفة. إنه يريد أن يغير روحه، ولكن ليس

فى ذلك شىء من المغالاة ولا الاستحالة بل إنه تجربة معقولة. فروحه ليست إلا أربعون سنة من العادات والحوادث والأفكار والإشارات والأقوال. إنها الحى الذى يعيش فيه، والمنزل الذى يسكنه، وملابسه وأثاث بيته، وزوجته وأمه العجوز.. إن ما يسميه روجه هو ذلك العالم المألوف الذى يضغط عليه ويخنقه، والذى يريد هو أن يرفعه عن عاتقه ويطوح به..

ولكن سلاقان لا يفارق أصحابه الثوريين حتى يدهمهم البوليس ويقضى ليلة فى السجن ويعود إلى داره فى صبيحة ذلك اليوم ليجد أمه تهلك أسى..

وكأنما انفسح له المجال لينفذ مشروعه الجديد، فهو يودع زوجته بخطاب قصير، ويمضى ليجرب أن يكون رجلاً آخر غير سلاقان. وقد تعلم فى هذه المرة ألا يطمح إلى أفعال رائعة.. لن يحاول أن يكون قديساً، بل يكفيه أن يكون إنساناً يخفف آلام المنكوبين من البشر، وما أكثرهم، فنراه فى القصة الأخيرة «كما هو» يعيش فى الجزائر باسم «سيمون شافجران»، وكيلاً لشركة فونوغرافات، وقد حلق لحيته واستبدل بنظارته المعدنية عوينات ذهبية الإطار، وأصبح يحظى بإجلال عارفيه لأنه لا يفتأ يضرب الأمثال على تضحيته وإيثاره وحبهِ للإنسانية. فهو قد أنقذ صبية

صغيرة من بين عجلات القطار فى مرسيليا، وهو قد تبرع بدمه لجريح، وتطوع لتمرير المصابين بالطاعون، ثم هو يرفع خادمه «مختار» ويعلمه القراءة والكتابة، ويحاول أن يثنيه عما هو منغمس فيه من قبيح العادات، إذن فقد بدأ يمارس أعمال الخير حقاً، ولم يعد يجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية، بل أصبح لأعماله مضمون واضح.

ولكنه على ذلك كله غير راض عما يفعل، لماذا؟ إنه غير مجرد من كل تفكير جماعى، فلعله يرى أن طبيبته وإنسانيته لا تستطيعان أن تخففا شيئاً من هموم البشر الثقيلة، ولكن ضيقه يرجع إلى سبب آخر أهم من هذا، فهو لم يقدم على هذه التجربة الكبيرة إلا لينقذ الإنسانية فى نفسه أولاً، بأن يكون إنساناً خيراً فيما يأتى وما يدع، عن سليقة وعادة لا عن تفكير وإرادة. وهو يرى أنه لم يبلغ من ذلك شيئاً، فهو يتردد ثانية إلى نفسه، ويصارع صاحباً له: «كيف يستطيع المرء ألا يكون إلا ما هو؟ وكيف يحاول أن يكون غير ما هو بغير أن يصيبه الجنون؟». هو إذا لم يتقدم خطوة منذ فكر أن يغير روحه، ولكنه يتعلم شيئاً واحداً: يتعلم أن «العمل الطيب إنما هو ثمرة تفكير.. يوازن ويختار. إنه النتيجة الثابتة لصراع باطنى كبير.» وتدخل

هذه الحكمة على نفسه شيئاً من الهدوء.. فهو يستطيع إذاً أن يصل إلى السلام النفسى الذى ينشده عن طريق هذا الصراع الباطنى الموجه دائماً نحو غرض طيب.

وتأتى نهاية سلاشان فى عمل من هذه الأعمال الطيبة.

قتل خادمه مختار بائعاً إيطالياً برصاصة مسدس، وكان سلاشان يستطيع - بشيء من حضور الذهن - أن يمنع الحادث، ولكنه لم يفعل، واعتصم الخادم بقبو المنزل فسار إليه سلاشان يضرع إليه أن يخرج ويعده بأن يدافع عنه، وإذا بالخادم يرديه بمسدسه.

عمل من أعمال الطيبة. عمل يودى بصاحبه دون جدوى ولكنه يأتية بالسلام النفسى الذى ينشده، لأنه انتصار على تردد النفس وجبنها، ومواجهة للجهل والظلام والشر، ولأنه لطف ورحمة، ولأنه عفو ومغفرة، وتلك هى الفضائل النفسية التى جاهد سلاشان ليبلغها، فليكن عزاؤه إذ لم يحظ بها فى حياته، أنه أحسها فى مماته، وليكن عذره إذ لم يبلغ السلام النفسى الذى ينشده، أنه دفع حياته ثمناً له!

* * *

وقد أردت بهذه المقدمة شرحاً وتفسيراً، ولم أرد نقداً وموازنة. على أنى أكتفى بأن أقول إن سلاقان الشاب أحب إليّ من سلاقان الكهل، ولعل القارئ يشاركنى فى هذا الحكم، فإن سلاقان الكهل أبعد عن الواقع، وأقرب إلى أن يكون دعوة لأفكار الكاتب، وسلاقان الشاب أروع سخرية وأقل تشاؤماً على رغم ما ينتابه من يأس عنيف.

شكرى محمد عياد

أنا لا أكره سيرو، إننى جد أسف لأننى فقدت وظيفتى، وهى وظيفة طيبة، ولكنى لا أكره السيد سيرو، فقد كان على حق، ولست أدرى ماذا كنت أصنع لو كنت فى محله، وإن كنت أفهم - ويا للأسف! - أشياء كثيرة.

ويجب القول إن السيد سيرو لم يشأ أن يفهم. وكان يلزمنى أن أوضح له كثيراً من الأمور، ولكنى بعد أن وزنت الأمر فضلت ألا أوضح له شيئاً. ثم إن السيد سيرو لم يدع لى فرصة لأتمالك نفسى، وأبرر مسلكى. فقد كان محتدأً، ولأقل فى غير موارد إنه كان غليظاً، بل كان فظاً. لا ضير، فليس يخطر ببالى أن أكرهه. أما السيد جاكوب فالأمر معه مختلف، فقد كان بوسعه أن يفعل شيئاً من أجلى، وقد رآنى أعمل خمس سنوات، كل يوم، فى الصباح وفى المساء، وهو يعلم أنى لست امرءاً خارقاً للعادة، إنه يعرفنى، أى أنه - فى أرجح الرأى - لا يكاد يعرفنى. على

كل حال! كان يستطيع أن ينطق بكلمة - بكلمة واحدة، ولكنه لم ينطق بهذه الكلمة، وأست ساخطاً عليه لذلك، فإن له زوجة وأولاداً، وسمعة لا يستطيع أن يقامر بها.

ولاشك أنى لو قلت ما أعلمه عن السيد جاكوب.. ولكن لينم قريراً، فلن أقول شيئاً. إنه لم يدافع عنى، ولم يخلصنى، ولكنى حين أزن كل الأمور لا أجد فى نفسى كراهية له أيضاً. فهؤلاء الناس ليسوا ملزمين أن يدخلوا فى اعتبارهم أشياء معينة. ولقد كان فى هذا الحادث مجموعة من الظروف الشديدة الإيلام. فلنسلم الآن أنى كنت وحدى المخطيء، ومادام حال العالم كما تعرف فلاقل إنى كنت مخطئاً. وسنرى بعداً!

لقد مضى على هذه الحادثة وقت طويل، ولولا أنك هجت ذكريات سيئة ما حدثتك عنها: ثم إنى قد وقعت لى أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت، فربما أكون قد نسيت بعض التفاصيل. ويجب أن أنبهك إلى أنى لم أر السيد سيرو غير ثلاث مرات، وهذا قليل فى مدى خمسين سنين، وهو راجع إلى أن بيت سوك وسيرو بيت عظيم جداً، فليس فى وسع هذين السידين أن يعقدا صلات مع موظفيهما الذين يبلغون الألفين، أما عملى أنا فلم يكن له أدنى صلة بالإدارة.

و ذات صباح بدأ التليفون يدق. ولست أدري أنت من أولئك
الذين تؤثر فى حواسهم الأجراس والنواقيس وسائر هذه
الأجهزة الجهنمية؟ أما أنا فأستفزعها. وإن وجود جرس كهربى
فى المكان الذى أنا فيه ليكفى لتكدير حياتى! ولهذا السبب وحده
أغضب أحياناً بتركى الخدمة. إن صليل الجرس ليس صوتاً
كغيره من الأصوات. إنه مثقاب ينفذ فجأة فى جسمك ويخرز
أفكارك، ويوقف كل شىء حتى نبضات قلبك. إنه شىء لا يؤلف.
ها هو ذا التليفون يدق. فيصغى كل من فى المكتب، دون أن
يبدو عليهم ذلك. وينقطع الصليل فينتظرون.. لست أشد عصبية
من غيرى، ولكن هذا الانتظار أيضاً قطعة من العذاب، فنحن
ننتظر لنعلم أكون هناك دقائق أخرى أم لا تكون.
فإذا كانت دقة واحدة فهى للسيد جاكوب. وإذا كانت دقتين
فهما لفلوج السويسرى. أما أنا فأذهب إذا دقت ثلاث دقائق.
ولابد أن الدقات الثلاث أصبحت لأودين بعد أن ذهبت، وكان
على عهدى ينادى بأربع دقائق. أودين! إنه ليس عصبياً هو
أيضاً، ولكنه لا يكاد يسمع الدقة الأولى حتى يأخذ فى قرص
ظفره، عن غير وعى بالطبع، حتى أصبحت لإصبعه تلك مجلة
متنقلة.

وفى اليوم المذكور دقت دقة واحدة لا غير، دقة كبيرة طويلة
مستقيمة، فيها ثقة تؤذى.

فيخرج السيد جاكوب من وراء ستره، يخرج من كنه، حيث
يرابط كحصان السباق فى حظيرته، ويرفع السماعه ويميل
معتمداً برأسه على الحائط، حيث ترك شعره على مر الزمن بقعة
مزينة.

ويبدأ الحديث وأنا شبه مصغ. وعجيب دائماً أن ترى رجلاً
طيباً يحدث العدم ويبتسم له ويتلطف إليه. رجلاً طيباً يحدق
فجأة إلى الدهان البنى على الحائط وكأنه يرى شيئاً يثير
الدهشة.

على أن السيد جاكوب لم يبتسم فى ذلك اليوم، ولم يتلطف،
فقد ارتبك منذ سمع الكلمات الأولى ثم علاه الاحمرار، ثم
أغضى وجعل يتأمل المدفأة الكهربائية القابعة فى ركنها شتاء
كأنها كلب صغير ساخط.

أما أنا فكنت أبرى قلماً، وغنى عن البيان أنى كنت أكسر سنه
بين لحظة وأخرى. وسمعت السيد جاكوب يمدم: ولكن ياسيدى،
لكن يا سيدى.. ففكرت فى أعماق نفسى «إن أعاد «لكن يا سيدى»
هذه فلسوف أنهض وأصفعه صفعة تصك رأسه بالحائط!«.

وأنا دائماً أحدث نفسي بأشياء كهذه. والواقع أنى أمرؤ شديد الهدوء وأنى لا أكاد أفعل شيئاً من هذه الأشياء التى أحدث بها نفسي. وأنت تدرك أنى لم أكن لأصفعه، ولكنى لم أزل أكسر سن قلمى وأوسخ أطراف أصابعى. وذكرنى السيد جاكوب بأولئك الوسطاء الروحانيين الذين يدعون مخاطبة أرواح الموتى، والذين يخلعون عليها - آخر الأمر - نوعاً من الحياة. فقد كانت تسمع - حين يصمت - ضوضاء خشنّة، كأنها آتية من آخر الدنيا أميز فيها - قليلاً قليلاً - صرخات صوت مغضب.

وانتزع السيد جاكوب نفسه من الجهاز فجأة، ووضع السماعه متحسّساً مكانها، ومخطئاً الخطاف ثلاث مرات قبل أن يعثر عليه. فاستبد بى الغضب ولكنه - بلاشك - لم يبد على. وأفلحت أخيراً فى أن أبرى قلمى برية جيدة، ومسحت أصابعى فى طرف سراويلى، حيث لا يظهر أثر الرصاص.

ويمضى السيد جاكوب إلى كنه، ويفتح صناديق من الورق المقوى ويقرقع بأوراق ثم يصيح فجأة:

- سلاقان! تعال هنا برهة!

كنت واثقاً أن ذلك سيحدث. فنهضت طائئعاً، ووجدت السيد

جاكوب ينتزع شعرات أنفه، وهذه عنده علامة قلق شديد. قال
لى:

– خذ هذه الكراسية واحملها أنت إلى السيد سيرو. ستجده
فى حجرته بالإدارة. قل له إنى أصبت بوعكة مفاجئة.
ووقف عند هذه العبارة، ومد بصره نحو النافذة وهو يطرف
بعينيه، لينظر إلى شعرة من خيشومه. ثم وضع الشعرة على
نشافة وأضاف وهو يكبح رغبة شديدة فى العطس ملأت عينيه
بالدموع:

– هيا يا سلاقان، أسرع!

ولكى تصل إلى مكتب السيد سيرو يجب أن تمر بأجزاء
كثيرة من البناء. وحين تكون النوافذ مفتوحة فى الصيف،
والأبواب منفرجة لتدخل النسيم، يلمح المرء أقساماً متعددة
بعضها فوق بعض، والرجال وهم يعملون فيها.

فمن هؤلاء من هم غارقون حتى صدورهم فى مكاتب أمريكية
مركبة الصنع كالآلات الميكانيكية. ومنهم من يتدلون ذابلين من
قمم كراسى عالية بغير مساند، مديبة كالعصى. وهناك جدران
عريضة، مغطاة بصناديق الأوراق، تذكرنى بمقبرة بيرلاشيز،
ويمر أمامها – على ممرات مرفوعة فى الهواء – صبيان أو

ثلاثة، يبدو عليهم الدأب بكثرة العمل كأنهم نحل العسل. وربما تسمع نقراً كصوت شؤبوب المطر، فتدخل بهواً واسعاً يعزف فيه الكتبة على الآلات كالمجانين موسيقى كموسيقى العاصفة، تتخللها دقات أجراس قصيرة. وترى فى غير هذا المكان كوى تذكر بالقط المبتل والفراء الغليظ، فى أسفلها رجال يضغطون سجلات النسخ تحت المكبس، وهم يقبضون أيديهم بشدة ويعضون على نواجذهم. وبالإجمال كانت اللوحة كلها تمثل مكاناً كل ما فيه منتظم، أى أنها كانت تمثل شيئاً لا يمكن أن يقارن بالفردوس الأرضى.

وفى الدهليز الموصل إلى مكتب السيد سيرو خادم ذو سترة رسمية وجوب أبيض. سألنى عن رقم القسم الذى أعمل به ودفعنى إلى غرفة فسيحة وهو يتمتم:

- إنه ينتظرك.

- فعرفت لتوى حجرة السيد سيرو، وإن كنت لم أدخلها غير مرة واحدة إذ إنى رأيت السيد سيرو فى المرتين الأخريين فى قسمنا. رأيت جدران الغرفة مغطاة بورق أزرق داكن، وحواف النوافذ والأبواب مدهونة بلون حلوى العنب، وفى أحد الأركان نموذجاً «لدراسة وذراية سوك وسيرو» وعليها أوسمة المعارض.

وكان هو هناك! ولعلك تعرفه وتعرف أنه رجل قوى البنية نوعاً
طويل القامة، حليق الرأس، له شارب منتفش ولحية صغيرة
خشنة، وشعر وخطه الشيب، وعويتان تهتران دائماً لأنهما لا
تمسكان إلا بقليل من الجلد تحت الجبين.

نظر إلى السيد سيرو عن عرض ولم يزد على أن قال:

– أجنّت من التحرير؟ وما بال السيد جاكوب؟

– إن به وعكة.

– كذا؟ هات!

كل ذلك وأنا واقف تجاه المكتب ذى الطراز الامبراطورى، لا
أدرى أبحسن بى أن أضرم عقبي وأشد جسمى أم أنثنى قليلاً
كما يقف الجندي وقفة الراحة.

ويجب أن أعترف لك بأنى عشت فى عزلة شديدة فى بيت
سوك وسيرو. فكنت أكره المناسبات التى تجبرنى على الخروج
عن وظائفى وعاداتى. لقد كان على أن أصحح المكتوبات لا أن
أقف أمام أمير من أمراء الصناعة. فلعت السيد جاكوب
وأعددت له بعضاً من تلك العبارات المجرّدة التى ما كنت لأقولها
آخر الأمر. وكنت أشعر بقلق فى جسمى الذى لم أكن أدرى
ماذا أصنع به. أحسست بعضلاتى تتقلص حتى تؤذى كل منها

الأخريات، وشعرت شعوراً غريباً بأننى أكون التواءة مضحكة ضخمة، لا بوجهى وحده، بل بجذعى، ومعدتى وأطرافى.. بجثمانى كله.

ومن حسن الحظ أن السيد سيرو لم ينظر إلى، بل كان ينقر بأصابعه على الكراسية التى قدمتها إليه، وهو يكظم فى نفسه غضباً شديداً.

قال فجأة وهو يضغط الصفحة بسبابته ولا يرفع أنفه:

– كتابة رديئة.. لا تقرأ.. ما هذه الكلمة؟

فخطوت أربع خطوات إليه. وانحنيت وقرأت بلا تردد وبصوت مرتفع: «تبرعاً» وجعلتنى هذه الحركة بمقربة من السيد سيرو، وعلى كئيب من ذراع كرسيه اليسرى.

وعندئذ لاحظت أذنه اليسرى، وإنى لأذكرها جيداً ومازلت أرى أن لم يكن بها شىء خارق للعادة. كانت أذن رجل دموى نوعاً، أذنأ كبيرة فيها شعر ويقع بلون ثمالة النبيذ. ولست أدري لماذا جعلت أنظر إلى هذا الغضروف بانتباه شديد لم يلبث أن أصبح مؤلماً. كانت هذه الآن جد قريبة منى، ولكن شيئاً لم يبد لي قط بعيداً. كبعدها، ولا غريباً كغرابتها، ففكرت: «إنها من اللحم الإنسانى، وثم أناس يجدون لس هذه اللحمه شيئاً طبيعياً

جداً، وثم أناس يألّفون ذلك اللّمس..»

ورأيت فجأة، وكأني في حلم، صبيّاً صغيراً – والسيد سيرو ذو أسرة – يطوق عنق السيد سيرو بذراعه. ثم لمحت الأنسة ديبير، وكانت كاتبة على الآلة، وكانت للسيد سيرو معها علاقة لخط بها الناس. رأيتها منحنية على السيد سيرو، تقبله هناك، خلف الأذن بالضبط. وكنت أفكر في أثناء ذلك: «أجل. إنها لحم إنسانى. من الناس من يقبلونها. هذا طبيعى» ولست أدري لماذا بدت لى هذه الفكرة عسيرة التصديق، وأحياناً مستنكرة. وتتابع على مخيلتى صور مختلفة، حتى انتبهت فجأة إلى أنى حركت ذراعى اليمنى حركة خفيفة، مقدماً السبابة، فأدركت على الفور أن بى رغبة فى أن أضع أصبعى هناك على أذن السيد سيرو.

وفى هذه اللحظة زمجر الرجل الضخم وهو ينظر فى الكراسية، وتغير وضع رأسه، فشعرت لذلك بغضب وارتياح ممتزجين. ولكنه عاود القراءة، فأحسست أن ذراعى قد بدأت تتحرك بلطف.

وقد روعتني أول الأمر هذه الحاجة من يدى إلى مس أذن السيد سيرو. ثم بدأت أشعر تدريجياً بأن عقلى ينصاع لتلك

الرغبة. وأصبح ضرورياً لى - لأف سبب لم أتبينه - أن ألس أذن السيد سيرو، وأن أثبت لنفسى أن هذه الأذن لم تكن شيئاً محظوراً، ولا معدوماً، ولا وهمياً، وأنها لا تعدو أن تكون لحماً إنسانياً كأذنى أنا. وفجأة مددت ذراعى بحركة مقصودة، ووضعت سبابتى بلطف، هنالك حيث أحببت، على قطعة من الجلد الأحمر فوق الشحمة بقليل.

سيدى، لقد عذب داميان لأنه طعن لويس الخامس عشر بسكين. وتعذيب إنسان عار كبير لا يمكن أن يسوغه شىء. ومهما يكن فقد أصاب داميان الملك بأذى قليل. أما أنا فلم أصب السيد سيرو بأذى، ولم يدر بخلدى أن أصيبه بأقل أذى، ستقول لى إنى لم أعذب، وفى هذا بعض الصحة.

لم أكد ألس بطرف سبابتى - وبرقة - أذن السيد سيرو حتى وثب هو وكرسیه إلى الخلف. ولا بد أنى كنت شاحباً بعض الشحوب، أما هو فقد أزرق لونه كما يحدث للمرضى بالصرع حين يشحبون. ثم انقض على درج ففتحه وأخرج منه مسدساً. لم أتحرك. ولم أتكلم. وشعرت بأنى جئت أمراً إداً. كنت خاوياً، منخوباً، مطموساً.

ووضع السيد سيرو المسدس على المنضدة بيد ترتجف، فكان

له حين مس المتضدة صوت كصوت الأسنان حين تصطك. وجأر
السيد سيرو جوارا.

ولا أدري على التحقيق ما حدث بعد. فقد أمسك بي عشرة
من غلمان المكتب، وجروني إلى غرفة مجاورة، ونزعوا ملابسى
وفتشونى. ثم ارتديت ملابسى، وجاعنى شخص يحمل قبعتى،
ويبلغنى أن الأمر سيكتم، على أن أغادر الدار من فورى، وسير
بى إلى الباب، وجاعنى أودين فى الغد بأدواتى الكتابية، وأشياءى
الخاصة.

إليك هذه القصة المحزنة. إننى لا أحب روايتها، لأنى كلما
رويتها استحوذ على ألم لا يوصف.

ولا يغيبن عن بالك أن قصة سيرو كانت بداية مصائبى.
 وحين أقول «مصائبى» لا أريد بذلك على وجه التخصيص تلك
 المتاعب الكبيرة التى عانيت بها لضيق وظيفتى، بل أعنى فى
 الغالب الأزمة الروحية التى أتخبط فيها منذ تلك الفترة، وقد لا
 أخرج منها أبداً.

وفى ذلك اليوم سبرت وأشرفت على أعماق لم تعد نفسى
 تستطيع تجنبها. كان هناك شبه انقطاع بين السحب، وفى لحظة
 نظرت بجلاء إلى أعماق الأعماق.

عبث أن تسرد بمنطق العقل أشياء لا تخضع للعقل. وإنى
 لأفضل أن أروى لك الحوادث التى وقعت من بعد. ويجب أن
 تلاحظ - بهذه المناسبة - أن إطلاق اسم الحوادث على صغائر
 لا قيمة لها - ككل شئ فى - أمر يبعث على الإشفاق إن أنت
 تأملته.

وقعت مشاجرتي مع رجال السيد سيرو في نحو الساعة العاشرة صباحاً. ولم تنتصف الساعة الحادية عشرة حتى وجدتني في الطريق. فلم يبق أمامي إلا شيء واحد أعمله: أن أعود إلى المنزل.

وأنا أقيم مع أمي. وإذا كنت لا تعلم من الأمر شيئاً فيجب أن أشرح لك كل شيء. وأن أروي لك كل شيء، وهذا أمر لا يطاق، فالمرء حين يتحدث عن نفسه لا يفرغ أبداً.

إن أمي أرملة. فقد مات أبي قبل أن أتجاوز طفولتي الأولى. فأنا لا أكاد أعرف شيئاً عنه. وليعلم أن ذكرياتي الشخصية المحضة قليلة جداً. وقد روت لي أمي - عدا هذه الذكريات القليلة - أربعمائة مرة بعض قصص عن أبي، حتى أصبحت هذه القصص جزءاً متمماً لذاكرتي، وأصبحت مضطراً إلى أن أجهد نفسي إجهاداً لأميز هذه الذكريات عن ذكرياتي أنا.. ولكننا سنتحدث عن أبي مرة أخرى.

كنا نقيم دائماً في مسكننا بشارع پوده فير. وهو ثلاث غرف ومطبخ في الطبقة الرابعة، وإنني لأشتمئز من هذا المسكن، ولكنني مع ذلك لا أستريح إلا فيه.

فالمسكن هو المكان الذي ينتهي بأن يصبح أشبه بصورة

للكائن. وما علينا إلا أن ندرك ذلك لنرى كل ما فيه من كآبة. بل من كآبة لا تحتمل.

كان لأمى دخل ضئيل. وكانت تتوصل بهذا الدخل وبالقليل الذى أكسبه إلى أن تقوم بشئون البيت قياماً حسناً. إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب، إنها الشخص الوحيد فى العالم الذى يجعلنى أرغب أحياناً فى أن أركع على ركبتيّ.

أقول لك هذا غير قاصد. على أنه من الخير - ولا شك - لو يركع الإنسان على ركبتيه أمام أحد ما، ولو يوقره، ولو يفتح له قلبه، ولو يفوض إليه كل أمر. وحين أفكر فى البشرية، حين أفكر فى هذه الكائنات الإنسانية، لا أنكر عليها ما تقترف من شر، بقدر ما أنكر عليها أنها لا تنهى لأن تتلقى من حين إلى حين رغبتنا المتحكمة فى أن تنبطح أمام الواحد منهم، ونحتضن قدميه، ونعاهده على الوفاء، ونخدمه خدمة العبد أو خدمة الكلب. أه، نعم! إنك لا تستطيع أن تنال شيئاً من هؤلاء الوحوش! إنك تقدم إليهم روحك ملتهبة، وتنتزعها لهم حية، فيبدو الشك على وجوههم وكأنهم بائع الكروش حين ينظر إلى نقد زائف.

وأعيد على مسمعك القول إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب. فهى كريمة الخلق، شجاعة، لا تكاد تشبهنى. وأنا - ولا شك -

خليق بالاحتقار، ولكننى أرجو أن تصدقنى إذ أقول لك إنى
خليق بالاحتقار لأسباب أنا وحدى الذى أعلمها، لأسباب لا
تخطر على بال أودين ولا السيد جاكوب ولا لانو نفسه. فهؤلاء
يحسن بهم - بدلاً من أن يحتقرونى - أن ينظروا فى أنفسهم
بثبات وجلد.. ويعد فلعلهم فى قرارة أنفسهم لا يحتقرونى.

غير أن فى أمى عيباً صغيراً. فهى تعاملنى دائماً وكأنى
مازلت ذلك الطفل الصغير الذى كانت تدله وتؤنبه فيما سلف.
وهذا يحق رجلاً يدلف إلى الثلاثين والحق أن أمى كثيرة
التأنيب.. وأنا أعلم أن هذا عيب صغير جداً، ولكنه مع ذلك
يؤلنى إيلاًماً شديداً، وخصوصاً فى مناسبات معينة وفى عيب
أمى هذا كنت أفكر وأنا خارج من محلات سوك وسيرو.

وأنعشنى الهواء الطلق. فبدأت أتمالك نفسى، واستجمع
أفكارى التى شردت فى كل سبيل، وكأئها جياذ عربية أياؤها
طول الشوط.

وسلكت طريق أوسترلitz وحاولت أن أفهم ما قد حدث لى،
وجعلت أكرر: «إنى رميت إلى الباب.. إنى رميت إلى الباب..
رميت إلى باب المكتب» ومن العسير على أن أنتزع أفكارى من
نغم السير، فلما كانت خطواتى منتظمة انتظاماً كبيراً أخذت

أوقع عباراتي العنيدة على نغم البولكا.

ووقفت فجأة. فقد بدا لي أن من الضروري إعلان هذا الخبر
لأُمي. وأن هذا الخبر كان محزناً جداً. وأنه ينطوي على نتائج
مخوفة.

فكففت عن السير واعتمدت بمرفقي على السور الذي يشرف
على نهر السين.

وكان الحجر أقرب إلى البرودة في ظل الأشجار. وكنت
بحاجة إلى هذه البرودة وإلى هذا السكون ليتضح إحساسي بما
فيّ من حمى واضطراب وكفتني دقيقة واحدة من السكون لأتبين
أنني لم أكن قط في حالتي الطبيعية تلك الحالة العجيبة التي لا
أكون فيها ألبتة.

على أنني وجدت في هذه الوقفة القصيرة روحاً. والهيّن من
الأشياء يسعدني. ولكن البلوى أن أهون الأشياء يفسدني. فما
أقل تماسكي!

كان هناك جماعة من الحمالين ينزلون البضاعة في مركب
شراعى. فكانوا يرفعون أحمالهم على حافة الرصيف ويصلون
إلى القارب على ألواح طويلة مرنة تتموج صورها على الماء.
وشعرت أول ما نظرت إليهم بسرور حقيقي ثم خلتنى أسير على

الخشب الضيقة كأتى بهلوان، فعرانى شبه دوار واستحوذ على الضيق فانتزعت نفسى عن الحجر وتابعت السير.

وسرعان ما تذكرت أتنى يجب أن أعلن لأمى الخبر الفاجع، وجثمت على صدرى هذه الفكرة.

بدا لى من السهل أن أقول «إنى فقدت عملى»: فالعبارة قصيرة، يسيرة، حاسمة، ولا يلوح لى نطقها مستحيلاً. وتراعت لى وجوه كثيرة للإفضاء بهذا الاعتراف الأول. فأستطيع مثلاً أن أجلس محطماً - وإنها لحالة لم أكن بحاجة إلى تكلفها - وأقول بصوت عال: «أماه، إنى فقدت عملى». وربما كان أدنى إلى اللباقة والبراعة أن أذهب وأجىء فى الغرفة كعادتى، حتى لا أزعج المرأة المسكينة، ثم ألقى فجأة بهذه الكلمات بنغمة يتجلى فيها عدم الاكتراث: «وبهذه المناسبة! أتعلمين أنى فقدت عملى؟» وتراعى لى أن من الممكن أيضاً أن أدخل المسكن ثائراً، وأقذف - فى عنف - بعبارة كهذه: «دناءة! فظاعة! إنهم جعلونى أفقد عملى» ثم تخيلت الصدى المؤلم الذى يكون لمثل هذا الانفجار - ولو كان مصطنعاً - على صحة أمى، ففضلت أن ألجأ إلى خطة أيسر، فأدخل حجرتى، وأخلع حذائى بحركة مسموعة، فتقول لى أمى: «لماذا تخلع حذاءك؟ هل أغلق المكتب هذا المساء؟»

فأجيبها: «كلا، ولكنى لن أعود إليه، فقد كان بينى وبين الرؤساء كلام شديد، وفقدت على».

وأكرر لك أن هذا القسم من الحديث لم يبد منطوياً على شىء من الصعوبة. ولكنى كنت أضيق صدرأ حين أفكر فى أنى يجب أن أعود على الأمر بالشرح، وأوضح أسباب خروجى، وأروى القصة.. تلك القصة العظيمة التى أصبحت - الآن على علم بها. أما هذا فلا! لن أفعل ذلك مهما تكن الدواعى! لقد قلت لك إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب، ولكنها سوية الطبع. معتدلة النفس، فليس بمقدورى أن أطلعها على هذه المغامرة المضحكة، على هذا الإصبع الموضوع على أذن الرجل الضخم الطيب، على هذه الحماقة!

ولكن.. أهذه حماقة؟ أهذه مغامرة مضحكة حقاً؟ كلا! ألف مرة كلا! لن أقر لك بأنى مجرم ولا بأنى أحمق. أهذه هى إنسانيتكم؟ هاك رجلاً مثلك ومثلى، بينى وبينه حد بلغ من قوته أنه يجعلنى لا أستطيع مس جلده بطرف إصبعى دون أن أكتسب صفة المجرم. إذاً فلست حراً؟ إذن فالفرد محاط - كالأقطار البحرية - بمساحة لا يجوز للأجانب أن يبحروا فيها إلا بعد أن يستكملوا مراسم خاصة؟

أنا لا أتظاهر بالشذوذ. فما خلقت إلا كخلقة غيرى. وإن شيئاً ليقول لى: إن هذه الفكرة التى حفزتنى إلى الحركة فى تلك المناسبة لفكرة من الأفكار التى يعرفها كل الناس. إنها لفكرة شاذة مضحكة، ولكنها - فى صميمها - فكرة طبيعية. أما أن الاستسلام لمثل هذه المشاعر شىء يليق أو لا يليق، فهذه - وأسفاه! - مسألة أخرى.

إنى أكره الكذب. ولئن كان ما نلقاه من الشر فى التخلص من الحقائق يكفيننا، هل يجب أن نمزج شقاعنا بشقاء جديد؟ لهذا لم يخطر ببالى أن أروى لأمى أنى فصلت وفقاً لخطة عامة فى نقص الموظفين، أو أن دسائس زملائى الحاسدين هى التى أدت إلى فصلى. أو بالأحرى - ومادمت قد حدثتك عن ذلك - خطرت لى هذه الفكرة، ولكنها لم تلبث إلا ريثما رفضتها فى سهولة.

كانت أفكارى - كما ترى - بعيدة عن أن تدخل الاطمئنان على نفسى. وحين وصلت إلى جسر أوسترلitz كنت قد صممت أن أعلن خبر فصلى بلا أدنى تعليق.

إن جسر أوسترلitz جسر جميل. فهو يمتد وسط مساحة كبيرة بيضاء. وإذا أصاب باريس شىء قليل من الضوء فهو

لجسر أوسترلتز. هناك لا ينقطع النسيم، ولا روائح السفر، ولا المراكب العمول، ولا الباعة من كل جنس، ولا المصورون فى الهواء الطلق، يتخذون من أردية نسائهم حجراً مظلمة ليعيدوا ملء أجهزتهم. هناك - فى إيجاز- كل ما يستهوى النظر، وفى الجسر أحدياب يسير كأنما دغدغته عربات الترام والأثقال التى تجرى على فقاره، وأقول لك مجملاً إنى معجب بمنطقة جسر أوسترلتز فهى مكان لم تتوشج صلاته بذكرياتى السيئة، ولست أذكر أنى مررت قط بجسر أوسترلتز خزيان أو غاضباً. ومثل هذه الأمور لها وزنها.

ولكن جسر أوسترلتز - وأسفاه! - لم يغن عنى شيئاً فى ذلك اليوم، فقد كانت همومى محرقة فلم يمدنى جسر أوسترلتز بقوة.

فأممت حديقة النباتات وقلت لنفسى : «لاشك أن الدرب المحاط بأشجار الساج أرفق بى» فإن هذا الدرب الممتد الذى يصعد نحو المتحف مكان أجد فيه السعادة دائماً.

وكان الدرب المحاط بأشجار الساج خيبة مطلقه، فحين وصلت إلى ما يوازى قمة بيوت النبات الزجاجية كان ضيقى وكدرى قد زادا بعض الزيادة عما كان حين عبرت بوابة الحديقة،

وتركنى الدرب أنساب منه، مظهراً عدم اكتراثه بى، غير معنى
اليوم بأمرى إلا كما يعنى بأجنبى، غير مظهر لى أية واحدة من
آيات الصداقة، أنا الذى ربت عليه بطوله منذ خمس سنوات،
أربع مرات كل يوم فى الصيف، وثلاث مرات فى الشتاء.

فاعترانى شعور مؤلم بأن الأشياء تهجرنى وتناوئنى، وإنها
لبادرة شؤم ياسيدى أن تخوننا الأشياء فى المناسبات الخطيرة.
بل إن منظر الحديقة النباتية جلب على كدراً لم أكن أتوقعه.
فقد كانت الحديقة مغلقة، ففهمت أنى جئت قبل موعدى، وإذا
واصلت السير كان وصولى إلى المنزل رآد الضحى أمراً غير
مألوف يعجل بالكارثة، أعنى أنه يعجل بالإيضاح.

فعدت أسير نحو حظيرة الدببة. ولم يفارقنى - وأنا أفعل
ذلك - غضب أخرس، لأن عاداتى جميعها قلبت رأساً على عقب!
لا عجب إذا أنكرنى العالم المؤلف، فقد أوقعت الاضطراب فى
كل شىء، ونقضت الاتفاق، ووصلت فى وقت لا أنتظر فيه، كما
يعود الزوج المرتاب فجأة من سفره :-

كان لدى أكثر من ساعة أضيعها قبل أن أستطيع الوصول
إلى شارع يوده فير، فأمضيت هذا الوقت أطوف حول الحديقة
النباتية، كسفينة على مرأى من الميناء تنتظر المد لتدخله.

وكنت عازماً ألا أنبس بكلمة من قصتي، ولكن ثقّتي بأن أمي
سوف تستوضحني الأمر لم تعفني من الغيظ.

قلت لنفسى : «إن وجهت إلى أدنى لوم فلن أجيبها بشيء»،
سأظل جامداً، متكبراً، كمن عانى ظلماً فادحاً، فأنا الفريسة في
هذه القصة بعد كل شيء. لقد عانيت ظلماً فادحاً ومن حقي أن
يُعتذر إلي وأن يُطيب خاطري».

لا شك أنها ستؤنبني. فهي تعاملني دائماً كما لو كنت طفلاً،
ولاشك أنها سوف تندب حظها، وتساألني أسئلة، وتكلمني عن
النقود.. أوه! أما هذا فلا إن هذا الموضوع قادر بطبعه على
إثارة حنقي، أنا لا أحب أن أسمع حديث النقود.

فإذا حدث أنها أنبتني فلن أخفي عنها شيئاً من أفكاري.
سأقول لها رأيي في تلك الوظيفة القذرة التي أضعتها، أغلظتني
أنا أني اشتغلت بالأعمال الكتابية، وأنا الذي كنت أريد أن
أدرس الكيمياء؟ إنني لا أصلح البتة لهذه الصناعة المكتبية. لماذا
أجبرتني أمي على أن أعمل أولاً في بيت موتيه، ثم في بيت سوك
وسيرو؟ لقد خلقت للكيمياء. كل ما حدث كان لابد أن يحدث.
لماذا لم تدعني هي أسلك طريقي؟ صحيح أنا فقراء. ولكن هذا
ما كان سبباً ليحور حياتي، ويضيع مستقبلي، ويكرر سعادتي

بل يحطمها . كلا! كلا! إني لا أقبل أى لوم فى شأن هذه الوظيفة
التي ضيعتها فلولا أنى أجبرت على قبولها ما ضيعتها».

وكنت أحس وأنا أذرع الدروب المتمعجة فى ذلك التيه أن
جيشاً من الأفكار السامة ينفخ فى حتى يمتلىء جوفى، فكانت
خطاى ترتد دائماً فى تلك الدائرة الحمقاء، ومشاعرى تدور حول
نفسها، كجماعة من الزرازير لا تدرى أين تنزل، ووصلت
بالتدريج إلى هذه النتيجة : إن أمى هى الشخص الوحيد
المسئول عن شقائى، فهى التى تركتني أضيع عهد الدراسة بغير
أن تحفزنى إلى السير فى الوجهة الصالحة، وهى التى دفعتنى
إلى البحث عن أعمال لا تتفق مع شخصيتى، وهى التى ستنحى
على الآن باللائمة، فتحديثنى عن متاعبنا المالية، وتبصرنى
بحماقتى وسوء تدبيرى، كلا! كلا! إني لا أستطيع احتمال ذلك.
كان الجو إعصارياً هداماً للقوى، وأجهدنى الجولان فتصيببت
عرقاً وصرت أمشى وكأنتى مخمور، والحق أنى كنت ثملاً، كنت
ثملاً بالمرارة والغضب، ومع ذلك فقد ضمنت الشئء الجوهري :
لقد أعددت أجوبيتى لها، وكنت محشواً بالحقد حشو المدفع
بالبارود، كنت مستعداً، كنت عازماً على أن يكون لى فصل
الخطاب. تستطيع يا سيدى أن تزدرينى. إني أوافقك على ذلك.

ولكنى يجب أن أذكر الأشياء كما هي.. تخيل الآن أى مجنون كنت حين سمعت الساعة تدق نصفاً بعد الثانية عشرة، وحين جعلت وجهتى شارع يوده فير، ومشيت مسرعاً كمن كدح ليكسب قوته.

الدھليز الذى يخترق منزلنا، محاذاً أرض الشارع، مظلم عند الباب كأنه حجر، أكلت بلاطه فى الوسط خطى لا تحصى، حتى بدا وكأنما شقه من أوله إلى آخره مسيل تثوى فيه المياه الوحلة التى جلبتها الأحذية إليه، فهى ليست بقايا من مياه المسح، لأن البوابة عجوز لا تمسح أبداً.

لهذا الدھليز عندى انطباعات حية أليمة، فهو من تلك الأمكنة التى تكون جزءاً من نفوسنا، وكل أفراحي وأتراحي وثوراتى سبكت بين جدرانہ، فتركت عليها أثاراً لا تمحى : بقعاً غير تلك التى تخلفها الرطوبة وروائح وحشية أنا وحدى الذى أشمها، وذكريات كثيرة خشنة، تبطىء دانماً من خطوى، وتشرب نفسى الكآبة.

والشمس أم النسيان لم تر هذا الدھليز قط منذ ذلك اليوم الذى ضل فى ثنايا الماضى، يوم أن دفنه البناعون تحت المنزل،

كما دفنت المقابر المصرية تحت الأهرام، ولعل هذا هو السبب
فى ازدحام الدهليز بالأشباح.

وأنا ألفه، كما نألف هذه الأمراض التى أصبحت جزءاً من
عادتنا وكما نألف الأزاهير المرسومة على الحائط فى ليالى
الأرق.

ألف مثلث الضوء الشاحب الذى يرسمه مصباح الغاز من
الطوار على حائط دهليزى فى ليالى الشتاء.

ألف الرائحة المسكينة الباهتة التى تحوم مع الأهوية المختلفة
فى أحشاء منزلى ولو بعثت بعد خمسمائة عام لعرفت هذه
• الرائحة بين روائح العالم أجمع، لا تسخر منى، فعساك تعز
أشياء أقدر من هذه، وأعسر على الاعتراف.

وإن اتفق لى أن عدت من نزهة من النزحات التى يذوق فيها
المرء لذات كثيرة جديدة، ويستشعر فيها رغبات لا تحصى أو
اتفق أن عدت من نهار جميل كما يعود المرء من حمام مطهر،
فإن دهليزى يضرب على كتفى ويقول لى : «حذار! فما أنت إلا
سلاقان!» وتعرفونى البرودة لهذا التصريح، ولكنه يفيدنى، فمن
العبث أن يخدع المرء عن أمر نفسه.

وها أنت ترى أن للدهليز عملاً فى قصتى نفسها، فهو يعطلنى،

ويبرد قصتي، ويشلني كما كان قميناً أن يفعل في ذلك اليوم،
يوم مغامرتي.

ولكني ذكرت لك أنني كنت شديد التوثب، فعبرت الدهليز وكأني
عبرت مستنقعا مليئاً بالأشواك، جرحني ولكني مضيت، ووجدت
نفسى قد وصلت بحركة واحدة إلى مسطح الطابق الأول.

وهناك تعيش بوابتنا العجوز، في ظلمة تسكنها روائح
المطبخ، تحت نفثات مصباح غازي لا ينطفئ مطلقاً، له أنبوية
يغشاها الماء، ويموت الضوء ويبعث مائة مرة في الدقيقة، وبين
شهقاته وزفراته ترى نافذة صغيرة تطل على الفناء الداخلى
المعتم.

وبوابتنا العجوز تكاد تقضى نحبها في نفس المكان الذى
غرس فيه، وهى تموت مبتدئة برأسها كما تموت أشجار
الصفصاف، فهى شبه مجنونة، وقد كادت تفقد بصرها من أثر
سحابات فى كلتا عينيها أحالت إنسانيهما أبيض اللون، وعلى
الرغم من ذلك فهى تعرفنا جميعا - نحن ساكنيها - بخطانا،
وتنفسنا، وبكثير من العلامات الصغيرة الأخرى التى تدلها
علينا، ولا تستطيع هى تحليلها، فتكاد حساسيتها تلك تشبه
حساسية القواقع الساكنة.

دقت البوابة الباب وقالت لى :

- لويس : هناك خطاب لك وجريدة أزياء لمرجريت، قلعلك تسلمها إليها فى طريقك يا بنى.

ومرجريت جارتنا، وهى خياطة، فتناولت الخطاب وجريدة الأزياء، ومضيت فى صعودى، وكنت أصعد مسرعاً حتى لا أدع لما اعتزمته من الأمور وقتاً تتبدد فيه، وأحدثت لى دورات السلم دواراً خفيفاً كان مألوفاً لى. وعلى الرغم من توتر أعصابى لم أخلف عادتى القديمة قدم حياتى، فقرأت هذه اللافتة عند مرورى بالطبقة الثانية : «لبارنيو : اختصاصى فى أحذية القماش ونعال الليف». ولبارنيو صانع بئس يعيش فى فقر مدقع، ولكنى لا أريد أن نضيع الوقت فى الحديث عنه.

حين وصلت إلى مسطح الطبقة الرابعة وضعت جريدة الأزياء على «اللبادة» أمام باب مرجريت، وأسرعت فنقرت بأصبعى نقراتى الخفيفة على بابنا، ولبابنا جرس، ومعى مفاتيح، ولكنى لا أستعمل ذلك كله، فلى طريقة خاصة فى النقر، إن هذا يبسط الحياة.

وجاءت أمى لتفتح لى، وفعلت وفى ذلك اليوم - أول الأمر - ما ألفت أن أفعله، فإن ساعات الحياة اليومية تكون جهازاً شامل

القدرة، تشدنا أجزاؤه المتتابعة، وتدفعنا، وتسيرنا على رغم ما قررناه فى أنفسنا، وأعنى بهذا أنى قبلت أمى ووضعت عصاى فى الأصيص الكبير، وعلقت قبعتى على المشجب، وذهبت إلى المطبخ لأغسل يدى، فكنْتُ أطيع قوى عتيقة مستبدة، ولكنى لم أفقد شيئاً من غضبى الذى كان يتلوى فى باطنى كما تتلوى قطعة فى زكية.

وتبعتنى أمى إلى المطبخ، ورفعت غطاء الوعاء النحاس بطرف الحركة فى لطف، وقالت لى وهى تهز رأسها :

- لقد صنعت لك يا لويس شريحة صغيرة من لحم الضأن. إن اللحم غال فى هذه الأيام، ولكنى أردت أن أصنع لك شريحة صغيرة من لحم الضأن، فأنت تحبها.

قل لى، ماذا جاءت هذه الشريحة لتفعل وسط عذابى؟ أيجمل الكلام عن المطبخ مع رجل حاق به الظلم، رجل ينتابه اليأس والغضب؟ لقد ملأتنى شريحة الضأن هذه خزية، لقد جعلتنى هزأة أمام نفسى، لقد جرحتنى جرحاً عميقاً، وأحسست إحساساً واضحاً أن أمى تسخر منى.

وبعد فلم الكلام عن ثمن اللحم؟ إنى أعلم جيداً أن اللحم غال، أتكلمنى أمى عن تكاليف الحياة فى اللحظة التى فقدت

فيها وظيفتي؟ أؤكد لك أن عبارتها لطمتني كأنها صفة، ولكني لم أقل شيئاً، حتى لا أغيض شيئاً من حنقي، وحتى أدعه كاملاً مخيفاً لا رد عليه، واستعرضت في سرعة كل أجوبتي، فإذا هي مجهزة حاضرة لاذعة، مصفوفة أمام عيني كالأسلحة.

وتأهبت للذهاب إلى غرفتي حتى أخلع حذائي بحركة مسموعة كما عزمت ، لكن خانتني الشجاعة في اللحظة الأخيرة، فقلت لنفسي : «خير لي أن أنتظر فرصة مناسبة، كأن تحدثني أمي مرة أخرى عن شريحة الضأن هذه».

وبدأنا نتغدى. وكانت معدتي مقبوضة متقلصة، فلم أكل بشهية، وجعلت أنظر إلى قعر صحفتي، وأزيع قطع اللحم حتى أرى شقوق الخزف وأنا أعرف بالدقة كل ما في صحافنا القديمة من شقوق .

وشعرت بنظرة أمي مثبتة عليّ لا تفارقني، فقلت لنفسي : لا بد أن مظهرى يدل عليّ، وأن عارى مكتوب بجلاء على وجهي، واستنتجت من ذلك أني مخلوق تافه، عاجز عن إخفاء مشاعره. وزادني ذلك حنقاً .

وكنت أنظر بين ألوان الطعام دون أن أنبس بكلمة، ولم أرد أن أضع يدي على المائدة، فقد كنت أحسن نوعاً من الخجل من

يدى. كنت إذا أضمرت سرا هاماً خانتنى يدائى، فقد كانتا عاجزتين عن التصنع. لهذا تركت ذراعى مدلاتين - وهما مفرطتا الطول - وجعلت أعبت فى جوربى بأطراف أصابعى، وتلك لوثة مضحكة لا أستطيع التخلص منها. فقالت لى أمى برقة تنطوى على إهانة بالغة :

- د ع جوربك يا ولدى المسكين، فريما خرقتة .

فوضعت على المائدة يدى المرتعدتين من الغضب. لماذا «ولدى المسكين» ؟ أنا لا أحب أن يرثى لحالى، وخصوصاً إذا كنت لا أستحق غير الرثاء. وبعد فلم الحملة على عاداتى وخزعبلاتى ؟ لقد جاوزت السن التى تسمح لامرئ فى مثل طباعى بإصلاح نفسه. لم تبد لى ملاحظة أمى غير مجدية فحسب - فقد أبدتها ألف مرة من قبل - بل بدت لى كذلك مهينة فى تلك الحالة التى كنت فيها. ثم إنى استقبحت أن أوصى بالحرص على جوربى فى لحظة يكاد فيها فقرنا يتحول إلى تعاسة .

أوشكت أن أطلق العبارات المعدة التى زحمت حلقى. ولكن بأيها أبدأ؟ لقد كانت تتدافع لتخرج، كالخراف المجنونة التى تريد أن تنفذ كلها - فى وقت واحد - من باب ضيق. وهكذا لم أقل شيئاً فى هذه المرة أيضاً .

وأتممت غدائي وأنا أنظر إلى الأثاث والجدران والمدخنة، إلى تلك الأشياء التي شهدت على وجودي وائتمرت معي في أفكار كثيرة باطنية : إلى الأرنبين الخزفيين على خزانة الطعام، وإلى الساعة الكبيرة التي تحمل تمثالاً صغيراً من البرونز، والتي تعرف عني أقاصيص يحسن أن تحتفظ بها لنفسها. ونظرت إلي الرسم التيرولي في إطاره، إلى منظر الجبال الذي استنزفت وغيضت فيه أجمل أحلام طفولتي .

لم تشأ إحدى هذه الأدوات أو قطع الأثاث أن تشاطرنى ما أنا فيه. كلها نظرت إلى بقعة. وشعرت أنها ستكون جميعاً - عند أول كلمة من النزاع - في صف أمي، وأنها ستكون جميعاً حرباً عليّ .

وحين فرغنا من الطعام لاحظت على زاوية آلة الخياطة ذلك الخطاب الذي سلمته إلى بوابتنا .

ولابد أن نظرة أمي كانت تواكب نظرتي. فسرعان ما تمتمت: - لعله خطاب من لانو. أظننى عرفت الخط. إنك لم تفتحه. وكان ذلك حقاً. فأنا - من أنتظر بقلق محموم ساعى البريد الذى لا يكاد يحمل لى شيئاً، ومن لا أفتح خطاباً إلا فكرت أنه يحمل الخبر العظيم الذى يمكنه أن يحول مستقبلى - أنا لم

أفضل هذا الخطاب .

فتحت بهذر عبوس : وما ظننته إلا خبراً سيئاً، فقد كنت
أبحر فى برزخ أجدنى فيه معرضاً لضربات القدر، وقلمما يضع
القدر فرصته .

لم يكن فيه شىء. لم يكن فيه شىء على الإطلاق. فلانو
يخبرنى أنه بدأ عطلته، ويدعونى أن أذهب لزيارته فى أول فرصة
قالت أمى :

– أذهب هذا المساء ؟

فابتدرت شفتى عبارة لم أعدها قط، وأفلتت من بينهما لم
أستطع حبسها. أجبت :

– كلا. سأذهب عصر اليوم .

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت باقتراب الأزمة،
ولم يكن فى مقدورى أن أتراجع، فقد أعلنت الحرب. وأحسست
وجهى يلتهب، وصدغى يرتعدان، وشفتى تقلصان كشفتى جرو
يتحفر للعراك .

كانت أمى على وشك أن تقول «كيف عصر اليوم ؟ والمكتب؟»
فلم أدع لها وقتاً ولفظت بقوة منفجرة :

– لن أذهب إلى المكتب عصر اليوم. لن أذهب إلى سوك

وسيرو. انتهى ! انتهى ! لقد فقدت عملى .

كنت واقفاً متصلب الأعضاء، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنى متحفز متهيب للوثوب. وكنت أتنفس بمشقة. كنت أنتظر.

وكانت أُمى جالسة على مقعدها قرب النافذة، فرفعت رأسها بغير عجل ونظرت إلى .

وأُمى تلبس منظاراً لكبر سنها. ولها عيناان ذواتا زرقة دافئة براقّة. وهى حين تريد أن تحسن النظر ترفع عينيها لتنتفع أكبر انتفاع بمنظارها .

هكذا نظرت إلى مليا فى هدوء، ورأيت نظرتها الحلوة مثبتة على، تلك النظرة المفعمة بحنان قلق، تلك النظرة التى لم تفارقنى منذ كنت فى هذه الدنيا. وأحسست ساقى تهتزّان، فتمتعت أُمى بصوت طبيعى عميق واثق :

– ما بالك يا ولدى لويس ؟ الوظيفة ؟ هنا لك غيرها. ليس هذا بشر كبير .

يا للحكمة القدسية ! يا للطيبة ! إن هذا صحيح. ليس هذا بشر. رأيت ذلك بلمحة. وكان حقاً أنى لم ينزل بى شر. إذن فلم كنت شقيا ؟ لم كنت تعساً ؟

تقدمت خطوة فخطوة. ثم أحسست أنى لم أعد مالكا لأمرى،
وأن رغيل الحيوانات الثائرة التى كانت تهاجمنى قد ولت الأدبار
منهزمة عنى. وانطبع فى نفسى إحساس ممزق بأنى أنقذت
وانتشلت من الهاوية. فسقطت على ركبتى أمام المرأة المسكينة،
وأخفيت وجهى فى ثوبها وأخذت أنتحب بعنف وجنون، نحيباً
ينبعث من معدتى، وينبسط كالأمواج الصاعدة من غور البحر،
طارداً كل شىء، كاسحاً كل شىء، مطهراً كل شىء .

فى دنيا الناس عاصفة تهب دائماً. فطوبى للقلوب المحترقة
التي ترودها! طوبى للأرض المقفرة التي ترونها لك العاصفة !
لا أخفى عنك أنى بكيت أن الأشياء التي يجب أن أخفيها جد
كثيرة، فلأعترفن بتلك الدموع، فإنى مدين لها بأحسن لحظة فى
حياتى .

قلت لك إنى كنت راكعاً أمام أمى. كنت ساجداً أمام تلك
الطيبة البسمة، أمام تلك البصيرة الرعوف. ولم أكن أتعجل
النهوض، أنا الذى لا أفكر فى شىء إلا أن أغير مكانى. لم تقل
أمى شيئاً، وكانت قد وضعت يديها على رأسى ، ولا بد أنها
كانت شديدة التأثر، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنها
تحك بطرف ظفرها بقعة على ياقة صدرى. إنها جد معنية بى،
جد مهتمة بأمرى. جد مبزهوة بى - المسكينة ! - كأنه فى

الإمكان أن يزهو بى أحد !

جمعت خواطرى شيئاً فشيئاً حتى قلت :

- أماه ! نحن نعانى أزمات مالية !

فما كان منها إلا أن أجابت فى بساطة :

- بل إننا لا نعانى أزمة مالية يا ولدى لويس .

وكان ذلك حقاً، فقد كنا فقيرين، ولكننا لم نكن نعانى أزمة

مالية . واضطرت أن أعترف بذلك .

وشعرت شيئاً فشيئاً بأن نوعاً من الفرح المشع يغزوني .

وفعلت أمى ما تفعله كل الأمهات فى هذه الظروف : مشطت

شعرى، وربطت رباط عنقى، وأمرت على وجهى يداً ناعمة لم

تستطع أعمال المنزل أن تكسوها خشونة .

ثم فتحت الصوان ذا المرأة، صوان عرسها، وأعطتني منديلاً

مطرزاً، وشيئاً من الماء المعطر، وملبسة أيضاً .

وأكلت الملبسة وأنا أحبس آخر شهقاتى. كنت صبيهاً فى

العاشرة، بل فى الخامسة، بل كنت صغيراً جداً حتى وددت لو

أننى أهدهد. والحق أعتقد إنى تركت نفسى أهدهد. فلندع هذا

الحديث .

كنت فاهما تمام الفهم أن أمى لن تطلب منى إيضاحاً ما .

ولو لم يكن غير هذا لوددت أن ألقى بنفسى مرة أخرى عند قدميها، وأن أقبل حذاءها .

ولكنى فعلت خيراً من ذلك : قدمت إليها كل ما يمكن تصويره من إيضاح . قصصت عليها ما كان منى فى نهارى كله . قصصته عليها بكل تفاصيله لم أحذف منه شيئاً : لا السيد جاكوب، ولا إصبعى، ولا أذن الرجل الطيب الضخم . وكانت المسكينة تبتسم . وقد ارتعدت قليلاً لذكر المسدس، ولكنها سرعان ما تماكت نفسها وعادت إلى الابتسام، بل ضحكت لتؤكد لى أن كل ذلك لم يكن ذا بال ولا خطر .

أما أنا فأعلم أن هذا كله كان ذا بال وذا خطر . وقد أجادت أمى فى محاولتها أن تنسينى الأمر . يا للحظة الجميلة العريضة ! أترانى كلما أذلت نفسى أمام ذلك الكائن المقدس، أحسست أننى أسمو وأعظم وأتحرر ! .. هذا أمر غريب لا أخذ نفسى بأن أوضحه لك .

مازلت أرى منظرًا من ذلك اليوم المذكور : كنت جالساً على الكرسي الوطنى ذى المسند المرتفع، وهو من طراز فولتير، وكنت أتكلم بحرارة وأمى جالسة القرفصاء أمامى، تخلع حذاءى بلطف وتلبسنى كوئى، لأنها تعلم أنى أحب أن أمكث فى المنزل

ساعتين بغير أن ألبس نعلين خفيفتين وملابس عتيقة .

وتابعنا حديثنا ونحن نضحك ضحكات عالية. ولم تبد لى حياتى ولا مستقبلى أنصع مما بدوا فى ذلك اليوم. ولم أشعر نحو الإنسانية بعطف مخلص لا تحفظ فيه كالعطف الذى شعرت به ذلك اليوم .

كل ما لمسته احتفى بى فى أخوة صادقة. وذهبت إلى حجرتى فشعرت أن الأثاث يحيينى بترحاب صامت .

وحجرتى صغيرة مكتظة. هى مملكتى، وهى وطنى، وقد ورثت - عن أسلاف مجهولين - أريكة موقرة تشغل ضلعاً كاملاً من الحجرة بين الخزانة والسرير. ولكى أمضى فى قصتى لا أريد أن أتحدث عن تلك الساعات - ماذا أقول ؟ - عن تلك الساعات الجهنمية التى لا تحصى والتى أنفقتها على تلك الأريكة. وبحسبك الآن أن تعلم أن هذه الأريكة فى نظرى مكان مقدس، فرب مرة ملكت العالم فى الحلم وأنا مستلق عليها .

وبدت لى أريكتى فى ذلك اليوم متألقة تحت كسائها الحائل اللون، وذكرتنى بكل ما قرأناه معاً، فأنا أقرأ دائماً وأنا راقد، لأنسى جسمى ما استطعت، ولأكون أشبه بالميت فى حياتى الخاصة، وأعيش بكل ما فى مع أبطالى .

وأخذت أنبش الحجرة لأجد عقب سيجارة قديمة. فأنا أحب
الأعقاب التامة البرودة، وأتعمد ترك بعض اللفائف دون أن أتم
تدخينها لأجدها فى الصباح .

ولم أجد عناء فى الحصول على ما أردت، وشرعت أدخن وأنا
مستلق على ظهري .

كنت أدخن فى منزلى، وعلى أريكتى، عصراً، وفى غير يوم
الأحد. والحق أن هذا كان أمراً خارقاً، وكان أمراً رائعاً. كانت
للتبغ نكهة يزيد طيبها أنك لا تستطيع أن تدخن فى المكتب أثناء
النهار. ولست أذكر يوم الأحد، ذلك اليوم المحترم، فالتبغ يوم
الأحد نكهة الحرية، والحياة نكهة كنكهة التبغ .

ورأيت - وأن مستلق على الأريكة - ألواح الخشب الرقيقة
التي تنوء بثقل كتبى. وثبت نظرى على كعوب المجلدات فرأيت
مجموعها يتموج كماء جدول . وهذا خيال قديم ما زلت أسر به أو
يقف له شعري. وفى ذلك اليوم طربت له .

أمضيت على أريكتى ساعة غذية روية مركزة. ساعة من تلك
الساعات التي يمكنك أن تتحدث عنها عشرين سنة. ثم ذهبت
إلى النافذة لأطالع الكون .

كان الشهر أغسطس. فكانت رائحة المجارى الرطبة تتصاعد

من وسط الشارع، مختلطة برائحة الخضر وصياح الباعة نوى
العربات الصغيرة، الزاحفين بلا انقطاع فى شوارع الحى الذى
أقطنه. والشارع يبدو كأنه شق بإزميل بين كتلة صخرية من
الأبنية وكانت النوافذ كلها مفتوحة فكنت ترى الناس كما ترى
كائنات مستعمرة حيوانية فى صخرة عالية مشرفة على البحر،
وقد برزت من مكانها وقت الجزر .

وإن كنت لا تعرف شارع پوده فىر فاصنع معى معروفأ ولا
تذهب لتكتشفه. فأنا أعلم أنك سوف تتقرز منه، ولكنى أكره أن
أسمع أحداً يعيبه ويحقره، وأفضل أن أكون أنا وحدى من يذمه.
واستبنت فى أغوار تلك المساكن تفاصيل شتى كانت تبدو لى
من قبل حقيرة قدرة ثم بدت لى فى ذلك اليوم شائقة مؤثرة، ولو
استطعت لخاطبت جيراناً لم يكن يبدو على فى العادة أنى
أراهم.

ونادتنى أمى، فذهبت إليها وأنا أغنى بملء صدرى، فقالت لى
مقالتها التى رددتها ثلاثة آلاف مرة:

– خسارة أنك لا تريد تعلم الغناء، فإن لك صوتاً جميلاً
صداحاً.

وأتحفتنى بمفاجأة أخرى. فأخرجت من الصوان كأسين

رقيقتين كفقاقيع الصابون، وقنينة من خمر سنك تير، وقد أهدى إلينا ذلك الشراب قريب لنا أقام مدة فى إيطاليا .

وليس بى شراهة، ولكن هذه الزجاجة من الخمر القوية كانت متعه لى. قالت أمى :

- اشرب هذه قبل أن تزور لانو، اشرب هذه حتى يتم نشاطك ومرحك وإذا شئت أن تبقى لتتعشى مع لانو، فلك أن تفعل .

ونقلت هذه القطرة من الخمر سرورى نقلة ألزمت معها أن أمشى، وأن أنهك نفسى وأضنيها وأستنزفها .

فغيرت ملابسى وقبلت أمى الطيبة، ودرت هابطاً الدرج بأقصى سرعة .

ينحدر شارع موفتار من الشمال إلى الجنوب، فيحترق حياً قذراً مكتظاً صاخباً، كأنه قناة غذائية تمتد فى أظلم أجزاء المدينة .

وحى موفتار كأنه شد بأرسان إلى جبل سان جنفييف. فكأنه شاطئ صخري منحدر صمود، تتكسر عليه أمواج باريس الجديدة .

وأنا أحب شارع موفتار. ففيه مشابه من أشياء كثيرة عجيبة

شَتى : إنه يشبه مسكن نحل وضعت عليه قدمك. ويشبه تلك السيول التي يجلب النسيان هديرها. وهو لاصق بالمدينة كأنه طفيلي نام. وهو لا يحتقر سائر الأرض بل ينكرها. وهو مكتظ قذر كأنه خنزيرة .

ولحي موفتار عاداته الخاصة به وقوانينه التي لا يكون لها معنى ولا سلطان وراء نهر مونج. والغريب القادم من وسط المدينة، إذا ضل طريقه في شارع بلانفيل أو في ميدان كونترسكارب اجتذبت دواره موفتار كأنه قطعة من القش، وسرعان ما يندفع مع الشلال .

وشارع موفتار يبدو كأن به نهماً وحشياً، فهو يحمل على سرواته وعلى رءوسه وعلى أطراف أذرعه التي لا تحصي، ألوفاً من الأطعمة ذات الروائح القوية. والجميع يبيعون والجميع يشترون. وبعض الباعة الأذنياء يطوفون ببضاعتهم في راحات أيديهم : بثلاث ثومات أو بكامخ أو بعود من ثمر الحناء، فإذا باعوا هذه البضاعة بيعة رابحة اختفوا وانقضى نهارهم .

وعلى حافات السيل تتكدس جبال من اللحم النيء، والأعشاب الخضراء، والدواجن البيضاء، والبطيخ الضخم، وتفتت مياه السيل هذه الخيرات وتذهب بها على مجرى النهر،

لتولد من جديد عند مطلع الفجر .

والمنازل مدهونة بالألوان غليظة هي وحدها الألوان المناسبة،
وهي وحدها الألوان الممكنة. فكل باب من ورائه رائحة شواء،
ورائحة الدهن المسخن تصعد بين الجدران كأنها بخور محرق
بين يدي إله شره .

وأنا أروى لك كل هذا لأن شارع موفتار كان أول مرحلة في
سعادتي بعد أن خرجت من المنزل .

كانت الساعة قرب الخامسة عصراً، وقد بدأ الشارع يسكن،
فإن هجومه العظيم يكون وقت الصباح .

وأن تمر بشارع موفتار يوماً وأنت مفعم بالسعادة فذلك متعة
سخية تركت نفسي أنزلج حتى بحيرة جويلان، كما ينزلج رحالة
في زورق على حافة نهر استوائي. كان كل شيء عندي مصدر
إلهام، فوصلت - مع مرور الدقائق - إلى حالة من الغنى
والامتلاء .

وكانت في حوانيت القديد فتيات سمينات يأخذن الحياة مأخذ
الرقص وينعمن على الفطائر بإشارات مرسومة، بل بلمسات
حانية رقيقة، فيا للفطائر الحلوة !

وكانت الشوارع القذرة الضيقة، كالسرب الذي سلكه موسى

باليهود فى البحر، تكن ظلا بلون قاموس المحيط، ظلاً شرقيا
تندفع فيه أفكارى مستطلعة ظافرة .

وتمليت منظر جميلة تبيع الأعشاب المطهوه : مخلوقة فارعة
تبدو دائماً وكأنما أبطأها ثقل حلاها الطبيعية، قيض لى هذا
المنظر فى الطريق، وفى اللحظة المناسبة وهل كان من الممكن أن
أحرم شيئاً فى ذلك اليوم ؟

كانت كأس خمر سنك تير تتوهج فى جوفى كأنما هى جذوة.
فسرت وكأننى أمشى على الهواء. كنت مشمولاً بالبركات. كنت
ميسراً لكل غريبة .

كنت - أكثر من عشرين ثانية - إسكافاً فى حانوت تفوح منه
رائحة الجلد الروسى . وكانت عشرون ثانية أخرى نصف قرن
من حياة التفلسف، فى عزلة كاملة كأنها كشتبان الخياطة .

كنت تاجر سمك بين ألف سمكة زاهية اللون، بين جيش من
جراد البحر اصطدته بنفسى عند الفجر من بحر مزبد ترصعه
الجزر الصغيرة .

وكننت زارع خضر، وغارس كرم، وراعى بقر. وحملنى عثكول
من الموز إلى الصحراء فى إثر قافلة، ولكن رائحة المملحات ما
لبثت أن فتحت لى مزرعة دخنة فى ريف سيفان .

ما أطيب السعادة ! وما أيسرها وأسهلها ! أصدقني القول
يا سيدي كيف يدبر الناس أمورهم على ألا يكونوا سعداء، على
الرغم من كل ما منحوه من أسباب السعادة ؟

ولما وصلت إلى كنيسة سان ميدار لمحت زميلاً قديماً يدعى
ديلونى، عرفته حين كنت أعمل ببيت موتيه. وكان يشتري
طماطم من إحدى النسوة الثرثارات اللاتي يزحمن بسلالهن
رصيف شارع موقتار .

جاعنى والهـم باد عليه، وروى لى قصة طويلة مختلطة، عن
زوجة مريضة، وطفل ميت، وأشياء أخرى لست أدريها ..
فأحسست تأثراً مؤلماً، وطفرت فى عيني الدموع، ما كان
أشد طيبتى فى ذلك اليوم ! يالله ! ما كان أعظم شفقتى وطيبتى
فى ذلك اليوم !

ولم أستطع كبح جماح قلبي، فقلت لديلونى :
- أمحتاج أنت إلى نقود ؟ فالأمر كما تعلم ...
فرفض وهو ينظر إلى متعجباً قلقاً. أما أنا فقد نظرت إليه
وأنا أفيض عاطفة، فقد زاد يأسه نشوتى. وربما كان ما أقوله
الآن شيئاً فظيماً. ولكن ألمه آثار فى نفسى عطفاً حاراً لم يخل
من لذة . قلت له :

– أأستطيع أن أسدى إليك خدمة ؟ أمحتاج أنت إلى ؟
وجعلت نفسى رهن تصرفه. ووعدته أن أزوره، وتركته وأنا
أقاسمه على الوفاء والولاء .

ولم أزره. بل لا أعلم ماذا كان من أمره، وما عدت أعنى
نفسى بأن أفكر فيه، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت حرياً فى ذلك
اليوم أن أضحى بأشياء كثيرة، حتى لا يكون شقياً .

إن الظل الذى ألقاه على سرورى لم يزد ذلك السرور إلا
تألقاً. فلم تمض خمس دقائق حتى استحوذ على قلبى من جديد،
وملأه كأنه ورم، وكاد يصبح مربكاً ثقيلاً محمله. إنى أحدثك
طويلاً عن ذلك السرور، فاعذرنى، فما كان ذنبى أنى كنت
مسروراً فى ذلك اليوم وقد ثقل على السرور حتى كدت أبكى .

سار بى ذلك السرور العظيم كما يسير شراع منتفخ بقارب
على الماء. فصعد بى فى خفة شارع مونج، وهو مثعب قوى
يمتص وسط المدينة قرب المساء، ويرسل فيضاً متدافعاً إلى
الأحياء الجنوبية .

وبعد قليل رأيت نفسى فى المنطقة المقفرة التى تحيط بهال أو
كان. وكانت تسطع بحذاء البوابات رائحة منعشة، هى رائحة
براميل نبيذ مفتوحة، وكانت هذه الرائحة من أجلى .

ولست أدري - على التحقيق - أين ذهبت بعد ذلك، فقد كانت أحلامي تختلط بلا انقطاع بالعالم المحسوس، حتى أنى لم أعد - فى الواقع - موجوداً فى مكان بذاته، من ذلك الوقت إلى أن كانت الساعة السادسة .

ولعلى وجدت - فى تلك الأثناء - فى أمكنة كثيرة من العالم، ولعلى لم أوجد فى مكان ما . حتى إذا كانت الساعة السادسة ثبت إلى نفسى وأنا على رصيف طريق بوردون .

وكانت هذه محنة حقاً فطريق بوردون مكان مخوف لمن لا يثق بنفسه ثقة كبيرة .

إياك أن تقتحم طريق بوردون فى عصر يوم من أيام الصيف مالم تكن فى حالة من الرضا . فهو كئيب محرق . وروائح القناة والأضواء التى تنعكس عليها تحدث للمتنبه دواراً وغثياناً . خرجت ظافراً من طريق بوردون وأنصبت بعزة إلى ميدان باستيل، وهو مجلجل كالسندان ريان بالأشعة .

ورأتنى ضاحية سان أنطوان وأنا أنساب فى ضبابية وهاجة، كرجل أثمله نصر عزيز . وبعد قليل شارفت شارع كلر حيث يقيم لانو . ومضيت أنفق سعادتى مسرفاً وأنا لا أرقب آخر كيسى .

* * *

لانو رفيق من رفاق الصبا، وهو البقية الباقية من عالم أدرج
 فى الأكفان. لانو مجموعة ذكريات لا تحصى، وهو بعد ذلك
 رجل، رجل أحبه حباً صادقاً فقد كان دائماً شطراً من حياتى.
 ولم يكن من أولئك الذين قاسمتهم على الصداقة الأبدية وأنا فى
 سن الثانية عشرة، فهؤلاء لا أدرى الآن أذهبوا أم مازالوا
 أحياء. لم أرسم خطأً مع لانو، أو قلما فعلت ذلك، وهذا - بلا
 شك - هو السبب فى بقاءه موصولاً بكل ما يحدث لى .

أنا أحب لانو حباً هادئاً رقيقاً. أو بعبارة أخرى إن الشعور
 الذى أجده نحوه يبدو لى صداقة نقية صالحة ... ولكن من
 الإسراف فى الغرور أن أعتقد فى نفسى القدرة على الإحساس
 بعاطفة حقيقية .

ولا أظن لانو يعلم شيئاً عن كنه صداقتي له. فإن شيئاً ما -
هو شكل آخر من الغرور - يدفعني إلى إخفاء أصدق ميولي
كأنما هي مظاهر ضعف. ثم إن لانو لا يعلم أنه صديقي الوحيد.
فقد تركته دائماً يعتقد أن لى علاقات أخرى ممتعة قيمة لا
تحصى وهل أستطيع أن أعترف للانو بأنى فقير الطبع لا
أستطيع أن أصادق الكثيرين ؟

ولانو كاتب عند أحد وكلاء الدعاوى. وقد تزوج المرأة التى
أحبها، والتى سيحبها دائماً، وله منها طفل جميل أنا عرابه ...
فيالى من عراب !

وكانت الساعة السابعة قد انتصفت حين وصلت إلى منزل
لانو. ولم تمض دقيقتان حتى كنت قد صرحت أوضح
تصريحاتي فقد قالت لى مارث زوج لانو :
- أخرجت من المكتب ؟ إن الوقت مبكر
فأجبتها :

- أنا لا أذهب الآن إلى المكتب . لقد غادرتة
وسرعان ما ألقى على لانو أسئلة كثيرة أجبت عنها مرحاً
سادراً شارداً، شأن الرجل الذى تتراعى له صور المستقبل
مغرية شتى .

كنت نصف مستلق على الأريكة العريضة التي تجعل من
حجرة آل لانو شبه ثوى للزائرين، أنظر إلى مارث وهي تحمُّ
الرضيع قبل أن ترقده في السرير .

وكان أكتاف لانو يدخن في غليون صغير من خشب الزيتون،
وقد أمال رأسه الدقيق التركيب الجميل المنظر على كتفه. فكان
منظره يعبر عن سعادة هادئة تشبه الغيبوبة أو الخواء أو العدم.
كان يعبر عن سعادة مألوفة تشبه سعادة ساعة ذات خطار
أديرت مائة عام، أو سعادة حجر يسقط في الفراغ سقوطاً
أزلياً.

وكانت مارث يبدو عليها الرضا الذي يسبغه وجود خال من
الهموم. وكانت على الرغم من ذلك مقطبة الجبين لاتنى تدمدم
لعناد عابر يظهره الصغير، أو لقطرة ماء تقع على الحصير، أو
لقطرة أخرى تصيب مرآة الصوان .

وعجبت لذلك عجباً شديداً، أنا الذي لا أدري شيئاً عن
السعادة الحقيقية، أنا الذي لا أظفر بست ساعات ولا بأربع من
السعادة كل عام. وفكرت بغضب مكتوم : «ما قيمة هذه القطرة
من الماء ؟ لو أطلق نهر سين كله إلى حجرتي اليوم ما انتقص
ذلك من سعادتي شيئاً».

وتأملت الجماعة التي يؤلفها هؤلاء الأصدقاء. فبدأ لى أن الصغير وحده يحيا فى سعادته . وأما الآخران فهما ينامان فيها، إن صح هذا التعبير. ونظرت إليهما بشيء من الاحتقار، وبشيء من الشفقة أيضاً. وفكرت : «إن لديهما كل مسببات السعادة ومع ذلك فهما يشبهان الموميאות وسعادتتهما كأنها محفوظة فى القش. أما أنا فرجل بائس، وولد عاق، وموظف مطرود، ولكنى أجدنى اليوم ممتلئاً حتى عيني بسعادة صادقة عنيفة عظيمة، تنظر إلى سعادتهم كما تنظر جبال هماليا إلى ضفدع. إن فى هذا ظلماً ولكن فيه متعة ! هيا ! هيا ! فلنتفخ فى هذه البحيرة الراكدة» .

فجعلت أصفر بملء صدرى، وجعلت أصفر كإعصار. وأخذت أرتكب خزعبلات لا تحصى، وكل منها كأنها تشبع شهوة شيطان من الشياطين التى استبطنتنى .

حملت الصغير على كتفى لأرقص به رقصات تدير الرأس. وكان هذا المخلوق الصغير وحده فى مستواى، وفى مثل حالتى من ثورة السعادة، فكان يصرخ صرخات عالية، تحدث نوعاً من الارتياح الحاد لأشياء غريبة كانت تجيش فى نفسى .

وأخذ لانو وزوجته يتحمسان قليلاً قليلاً، حتى استيقظا بعد الغيبوبة وبدا كأنهما يقولان «أحقاً أننا سعداء ؟ فلماذا لا نمرح؟ ولماذا لا نرقص ؟ ولماذا لا نصيح ولا نثب ولا نقهقه ؟ » .
وأما أنا فقد كنت أرقص، وكنت أصيح. وكان مرحى مخيفاً .
قال لى لانو فجأة .

– أتبقى لتتغدى معنا ؟

وكنت أتيت على هذه النية، ولكنى أبديت بعض الأعذار،
ليتوسلا إلى أن أبقى.

فما إن كف لانو عن الإلحاح حتى نضح صدغاي بالعرق .
فقد تراءت لى أمسية موحشة، مع ذلك الحمل الثقيل من
المرح الذى لا أستطيع حمله وحدى. ولكن لانو واصل إلحاحه،
فقبلت على الفور فى جبن، وأنا أكاد أتلعثم من الخوف .
وكانت تلك اللحظة عقدة منفكة فى شبكة طربى المشدودة،
ولحسن الحظ التقطت العقدة على الفور ولم يظهر مثلها بعد .
وأرقد الطفل فى احتفال عظيم. وسرعان ما نام. ياللعجب !
إنه انسلخ بلا تردد من وجود ملؤه النشاط، إلى النوم، إلى
النسيان العميق، إلى العدم .

لم يكن لدى متسع من الوقت لأغبطه فيه. فقد جرى الحديث عن ألوان الطعام، ونبتت بذرة المرح التي حملتها إلى المنزل : نبتت الآن من تلقاء نفسها، وانطلق لانو يهبط إلى القبو، وهو يقول مقررأً :

- كذا، كذا ! زجاجة من زجاجات الفوفرى الثلاث !

وزادت مارث :

- هذا يومها وهذا أوان فتح صندوق الدجاجة المحشوة بالكمأة .

إن سرور الإنسان يا سيدى شعور غريب غير محض. فهو محتاج دائماً إلى أن يعتمد على أشياء مادية ندخلها فى المعدة؛ حتى حين يبدو السرور منقطع الصلة بكل هذه التوافه لابد له - إن أراد البقاء - من أن يستعين بقضايا هضمية، وقلما يعترف بأن هذه القضايا هى السبب الجوهري فى وجوده، ولكنه يلتمس فيها تأكيدات وترشيحات ونتائج ... وقد لا يكون فى هذا مدعاة للخجل، فهو طبيعى من كائنات شرهة مثلنا. انبش ذكرياتك وانظر. ألم تشعر بالحاجة إلى أن تؤكد أحسن لحظاتك بربط سعادتك بمتعة حارة من متع اللسان أو المعدة ؟ هكذا نحن ! وشاقنى أن أشارك مع مارث فى إعداد المائدة. وكانت حجرة

طعام لانو تشرف على مساحة واسعة متنوعة المناظر؛ ففيها
أبنية خفيضة، ومصانع ومعامل، وجمع متلاصق غير منتظم من
ال منازل المختلفة الزوايا. وكانت الشمس الغارية ترسل من خلال
هذا الخليط المهوش شعاعاً أفقياً، ماضياً كالحسام، يصل إلى
داخل الحجرة فيبهر أنظارنا، ويثير حماسنا .

وأخرجنا الدجاجة من مكنها، وكان صندوقاً للحفظ رعى
أشهرأ، كما ترعى الأشياء المقدسة، حتى تحل مناسبة عظيمة.
وفتح الصندوق وظهر الطائر، مبتلاً منكشاً بين قطع كبيرة من
الكماة ذات الرائحة النفاذة .

وكانت هناك أطايب أخرى، فأحصيت في شره ما يمكن أن
تزيده هذه الأشياء على سرورى .

وما بدأ الطعام حتى كان لانو وزوجته قد جنا مثل جنونى،
لقد جذبتهما ورفعتهما، وصرنا نترجع على درجة واحدة من
درجات السلم .. كنا دمي من دمي القره جوز مشدودة شداً
واحداً .

وسرعان ما مدت سعادتنا جذورها فى ذكرياتنا : جذور
طويلة ترتد إلى مسرات الماضى جميعاً فتمتصها لتتركها معها
فى الساعة التى نحن فيها .

وكانت ذكرياتنا الطيبة كثيرة. ثم كان هناك سحر فعل فعله
فى حوادث كانت تبدو لنا من قبل وخيمة مؤسفة، فعادت مختلطة
مع الأخريات وأسلمتنا إلى الضحك. واكتظت حاجتنا إلى
السعادة وسط روائح الأطعمة والأشربة، وبين نظراتنا الغائمة
ونحن على المائدة، فكأننا حيوان آكل عشب، منتفخ البطن،
يستطيع أن يجتر مرعى بحاله.

كم من ضحكات لذلك الماضى الذى يغذوه حاضر كئيب كربه
! لقد كانت لأكتاف موهبة فى المحاكاة فمثل لأعيننا وأذاننا
رهما من الأشخاص المضحكين الذين مسخهم قصص عشرين
سنة. وكانت تلك الذكريات قد بليت حتى رثت. ولم يكن لدينا
خير منها. فكنت كلما بدا لى أن لانو يريد حذف فكاهة من
فكاهاتنا الكبرى لا أتردد فى أن أذكره إياها، لأنه ما يزال بها
بعض قطرات من الرحيق، كالليمون القديم الذى عصر مائة مرة
ولم تكن مارث التى أعربت منذ خمسة أعوام لتشاركنا دائما
فى بعث هذه الذكريات الفكاهة من قبورها، فكانت تتعزى
بالابتسام. كان ذلك انتقام الصداقة من الحب .

وكنا نأكل أطعمة شهية ساذجة، فأدخلت فى تلك الصواريخ
المتوهجة شعلة حارة .

وكان الليل قد أظلم منذ وقت طويل، وأضىء مصباحه وعمت
رطوبته وإذا بشيء جديد يظهر فيّ دون أقل سبب ظاهر أو
مفهوم .

شعرت في لحظة محددة بأنى أقل مرحاً مما كنت قبلها
بدقيقة. هاك وصفى، فلست بقادر على أن أعبر عن الأمر تعبيراً
أوضح !

سيدي ! لقد ركبت البحر، ورأيت ارتفاع المد. إنه يعلو ويعلو
ساعات وهو يزداد جسارة وجراًة مع كل موجة، فلا يستطيع
المرء أن يتخيل وقوفه. ثم تأتي لحظة يتردد عندها الماء، وعندئذ
ينتهى كل شيء ! بعد هذا الوهن ترى الماء ينهزم ويتراجع
ويهرب هروباً مخزياً، وينحسر عن قيعان وعمر، وأغوار كانت قد
نسيت، يسلم ذلك كله للنور، فلا تستطيع له كبها ولا لهذا الفرار
منعاً .

لقد أدركت على الفور أن سرورى يذهب، وأنى سأبقى وحيداً
عرياناً مغدوراً .

ولاحظت اختلالاً مفاجئاً في التوازن. فلانو وزوجه ماضيان
في صعودهما، وأنا أنظر إليهما يرقيان، كمسافر قليل لا
يستطيع أن يتابع رفاقة إلا بالنظر .

وحاولت أن أصمد، وعبثاً ما حاولت ! فقد ألقيت بضع
أكاذيب لم يفد منها إلا صاحبائى، وبدت لى أنا قبيحة شائنة،
وفقدت الأطعمة مزيثها وفاجأت نفسى وأنا أسر انتقادها نوعاً
وإعداداً وملاءمة للحال .

وتملك عيني وأذنى صحوة لئيمة. وجعلت أراقب لانو، فأقنط
نفسى أنه معجب بما يقوله من سخافات وحقاقات، أمنحها أنا
ضحكات شحيحة تشوبها السخرية، فالقسوة .

وددت لو أصرخ مستغيثاً، مستنجداً، كبهار مكروب فى
زورق، محطم وكان ذلك عبثاً من العبث. فالوحدة من حولى
تتسع وتتسع، مظلمة مصمتة مروعة. وبدأ لى لانو وزوجه أناساً
من عالم آخر، كما يبدو السنونو للسمة .

لم تكن لى حيلة فاستسلمت بمرارة، ونظرت إلى نفسى
كطائر يذبح حتى يفيض من الدم، ويرى دمه يسيل منه، وكل
أمل وكل حياة تتسرب .

وانتهى القربان فى أقل من نصف ساعة، وشوهدت ونخبت
وأضنيت .

وأخطر من ذلك أن خسارة مقلقة تفاقمت واستحال تلافيتها.
فقد أسرفت فى الإنفاق وبددت سرورى، فأصبحت مديناً حريباً

إلى أمد طويل. وبدأت أندم على سرورى الأحمق فى تلك
العشية. وأخذت أفحصه فحسباً منظماً لا يرحم، عاداً هذا
السرف الأخرق المغرور جريمة منى .

ولم يلاحظ لانو وزوجه على شيئاً، فمضيا وحدهما وكأنهما
يسخران منى !

وكنت أبدو حاضراً معهما، بل يخيل إلى أنى كنت أجيب على
حديثهما التافه. ولكنى كنت أضمر لهما حقداً يشبه البغضاء.
لئن كنت أضعت ثروتى الباطنية وبددتها وخربتها فما ذاك إلا
بجريرتهما. فقد ساعدانى فى حماقاتى، وزاملانى فى بدواتى،
وقذفا بى فى فاقة أيوب. وجاءت لحظة نفد فيها صبرى فنهضت
لأنصرف.

وكان لابد لى أن أكابد نوعاً من الصراع، فقد تمسك بى
صديقائى وعزما على أن أبقى، فتشددت لأخلص منهما، كما
يخلص محب مخدوع من عشيقة طال بها عهده .

فأذعنا وودعانى فى سرعة ضاعفت حنقى .. ألم يكونا اثنين
ففى وسعهما أن ينفسا عن غضبهما ؟

أما أنا فقد أن لى أن أعود إلى الانغماس فى الوحدة، وبدأت
أتقرز مما كان منى فى نهارى، وكانت أكثر وقائعى مرحاً هى

أشدها على احتمالاً .

وأسرعت أهبط الدرج الأسود الحار، بعد أن نطقت ببعض
كلمات الوداع .

وكنت أحس أنني فصمت القلاس التي كانت تربطني،
ووجدتني على الأقل حراً. حراً في أن أكون شقياً كما أشاء
وحملني الشارع كما يحمل غريق على أواذي الماء، ورسمت لي
الطريق قوى قديمة مجهولة .

رأيت دقائق ذلك اليوم المشئوم دقيقة دقيقة : المكتب. السيد
جاكوب. السيد سيرو، الإغراء. الفعلة الحمقاء، التي كانت
ضرورية على الرغم من أنها حمقاء. عودتي إلى المنزل، ثورتى
ورفق أُمى وبعد هذه النقطة لم أجد من العنف والإصرار ما
يمكننى من الحكم على رعونتى، وسرورى الشاذ، وحمافتى
المسرفة .

وأسخطنى على الخصوص أنى لم أر إلى أية هاوية من
البؤس كانت تقودنى هذه السعادة المعربة التي لا أستحقها .
همت بخطى النائم فى باريس مظلمة جافة. وكانت تنفح من
الشوارع رائحة خانقة من التراب والروث المحموس. وكان كل
مصباح يمسك ظلى وأنا مار به، ويديره ثم يسلمه إلى المصباح

التالى، حتى كاد ذلك يغبى نفسى .

وأمضيت ساعة مضطربة وأنا مرتفق على جسر سولى،
أجمع عناصر يأسى وأضمها فى حزمة واحدة، وبذلت جهوداً
خارقة لأكون شقياً شقاء مضبوطاً. ولكن هذا أيضاً كان على
محظوراً، فما كنت عظيماً ولو فى الشقاء، بل كنت شيئاً تافهاً
شائهاً قبيحاً يثير السخرية .

وأيقظنى جرس منزلى؛ لا بصوته فهو أجش مطمور فى أعماق
أعماق البناء، بل بالبرودة اللزجة التى أحسستها فى يدي للمس
الزر النحاسى .

وصعدت السلم بخطى بطيئة وقد جللتى العرق، ودوختنى
أنفاس طسوت الفسالة الرصاصية الموضوعة على نوافذ السلم.
فلما وصلت إلى باب مسكنى بدا لى من الضرورى أن أدخل
خلسة بغير أن أوقظ أمى. فقد ملأنى اضطراباً تفكيرى فى أن
أجد نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام المرأة المسكينة .

فتقدمت على أطراف أصابعى كاللص. وكانت أمى قد تركت
- كما تعودت - مصباحاً صغيراً مضاء على خزانة الأنية،
فأطفأته بقمى حتى لا يقع بصرى مصادفة على مرآة، فأرى فيها
وجهى الذى كان - ولا شك - وجهاً بشعاً مربعاً .

ومضيت إلى حجرتى. وخلعت حذائى وانطرحت على الأريكة.
وكان ضوء مبهم منبعث من أعماق سماء باريس ينعكس فى
ضعف واضطراب على نحاس المصباح الصغير المدلى فى ركن
- بين حائطين فعلقت عينى بتلك الإشارة المروعة، وأمضيت الليل
وقبضتاي على فكى، أمضىته فى احتقار نفسى وكراهة ذاتى .

* * *

منذ هذا اليوم بدأ عصر، ترك في نفسي ذكرى لا يمكن
تحديدها، ذكرى مفعمة بالهدوء والخلج. وإنى لأستذكر ذلك
الوقت كما أستذكر نعاساً طويلاً، ولا غرو فقد بذلت إذ ذاك
جهوداً صادقة لأصهر أيامى وليالى فى خدر واحد وغيبوبة
واحدة .

حدثك بأن أودين أحضر لى غداة وقعة سيرو أدواتى الكتابية
القليلة، فصصفت ذلك كله فى ركن من الحجرة، منتظراً الوقت
الذى أنال فيه وظيفة أخرى . وبدأت للتو حياتى الجديدة .
كنت أستيقظ فى الصباح متأخراً . وكانت تعرفونى فى الأيام
الأولى - فى نحو الساعة السادسة رجفة مفاجئة تجعلنى أفتح
عينى . وهذا أمر طبيعى، فقد درجت السنين على أن أستيقظ
فى هذه الساعة لأذهب إلى العمل وهكذا ظلت بعض الزمن

أستيقظ فى نحو الساعة السادسة. وكنت أحس لذلك نوعاً من السرور، وأقول لنفسى إنه لا فائدة لى من مغادرة الفراش فى مثل هذا الوقت المبكر، فليس لدى ما أعمله خارج المنزل. وكانت هذه الفكرة السارة غالباً ما تعقبها أفكار أخرى كثيرة أقل منها إمتاعاً. فكنت أفكر فى وظيفتى الضائعة وفى ضرورة الحصول على غيرها. ولأقل فى إيجاز إن الندم كان أحياناً يسمم هذا الفراغ الذى لا أستحقه، ثم ينتهى بإيقاظى وكنت فى أكثر الأحيان أبذل مجهوداً عكسياً، وأستمسك بالهمود الذى يشيعه النوم فى أعضائى، فأطرد هذه الأفكار النابية، وأغوص بنشوة فى عدم مخيف لذيذ.

كأنى كنت فى جوف فراغ أسود : راقداً، معلقاً، مرجحاً، وكانت كل أفكارى ومشيتائى، وكل الأشياء التى تكون نفسى، محبوسة دائماً فى دائرة الظلام. وكانت تتراعى لى كرهط مختلط من الديدان، وكنت مستريحاً. كنت شيئاً جد قليل! ولعل الموت شبيه بهذا، فإن كان كذلك فهو شىء حسن .

لا أذكر إلا أنه كان مثبتاً على روحى - بل على البقية الشائهة من روحى - صورة زرقاء مستطيلة لنافذة، تتراعى من بين الأهداب كأنها تتراعى خلف قضبان قفص .

وأحياناً كان يزورنى وأنا فى قلب هذا العدم - كان يلم بى حلم. وكان حلماً مشوهاً، لاهتاً، كالقصاص التى تعرض فى السينما .

وأكثر أحلامى يدور فى صمت مخيف. ونادرة تلك التى تحوى جلبه وكلاماً وأغانى، وهى تترك روحى قلقاً أياماً كثيرة. وكثيراً ما أحلم فى اليقظة أحلاماً غامضة عنيفة، فأرى صوراً غير واضحة المعالم، ولكنها قوية الألوان. ولست أدري لم أحدثك عن هذا، فأنا رجل لا أختلف فى شىء عما ألفه الناس، رجل يشبه كل الرجال إلى حد مخيف !

وأعجب ما فى أحلامى أنى لا أحتاج أن أنام لأحلم ... تذكر أننى لا أعنى الحلم الذى يحلمه النائم، أى سقوط المرء فريسة لعالم مخيف متنافر رائع. وكثيراً ما أكون مشغولاً جداً، فأنا مثلاً جالس أكتب تحت مصباحى الصغير المظلل، وإذا بى لا أجد وقتاً أحس فيه أن روحى قد بدلت سيرها، وأنى دخلت فى حياة جديدة. وكانت هذه الحالة تفجؤنى أحياناً وأنا سائر فى الطريق .. ولكنى يجب أن أحدثك عن أحلامى فى وقت آخر، وليست بالقليلة تلك الأشياء التى أريد أن أرويها لك عن هذا العالم، فلا جدوى من اقتحام العالم الثانى .

وقد حدثتك عن الأحلام التى كنت أحلمها قبل أن أستيقظ.
ولو لم أتذكر عند اليقظة شيئاً من هذه الأحلام الصباحية
لتنتشر بها حتى تجعل لنهارى عطراً خاصاً، وتحدد لون نفسى
إلى اليوم التالى .

وكنت حين تبلغ الساعة التاسعة أنفض أغطيتى، ويصل إلى
من المطبخ الذى تعمل فيه أمى المسكينة - محدثة جلبه ضعيفة
- شذا القهوة ختالا نفاذاً كأنه فكرة . فأنهض وأرتدى ملابسى
بتراخ فظيع : تراخى الأشياء التى ينتظر حدوثها .

وأذهب إلى أمى فى المطبخ وأقبلها صامتاً، وأعتقد كل يوم
أنها ستبدي لى ملاحظة حكيمة، وأنها ستؤنبى على نعاسى
الدائم، وعلى هذه الأصباح الدسمة التى تجعل فى وجودى
فراغات ضخمة معتمدة يملؤها الغبار. ولكن أمى كانت تقول لى
كل يوم وهى تقبلنى بحنان :

- ولدى لويس، لقد لدنت لك شيئاً من خبز أمس .

فأجلس على كرسى القش المنخفض، بين بالوعة المطبخ
وخزانة الأنية المصنوعة من الخشب الأبيض، أحتل هناك مكاناً
ضيّقاً كمسالك القدر وأدير ظهري إلى الضوء الشحيح فى الفناء
الصغير، وأحس الارتياح حين تسندنى كل الأشياء المحيطة بى،

وتثبتتني وتدعمني .. أجل، كنت مرتاحاً على الرغم من كل شيء،
كنت مرتاحاً في بلاد وجين .

وأنا أحب القهوة، كما أحب الرائحة اللطيفة التي تنبعث من
الخبز المالدن. ولذا كنت أستمتع بتلك النعم التي لا أستحقها،
بينما تنظر أُمي إليّ بلطف وانتباه، بعينيها اللتين ألفتا قلة
الضوء. وكنت أدرك أن وجهي لابد قد مسخه النوم، فقد كنت
أحس في قسماتي ثقلاً وانتفاخاً، وفي عيني ورماً، وفي شعري
خشونة وتشعثاً، ولكني لم أكن أبالي، فجل همي ألا أقطع ذلك
السحر المخمد الذي يسمح لي بأن أعبر من ليلة إلى ليلة بغير
هزة ولا صدمة ولا يقظة حقيقية.

فإذا انتهى الفطور عدت إلى حجرتي لأصلح هندامى. وإذا
كان وقتي غير محدود فقد كنت أشرع في الاغتسال بكثير من
الفوضى والإهمال، ومن ثم كان يتفق لي في بعض الأيام أن
أظل إلى المساء أوجل حلق ذقني من ساعة إلى أخرى، حتى
تركت حلاقتها تركاً، وأصبحت لي منذ ذلك الحين تلك اللحية
التي تراها، والتي تثير فيّ اشمئزازاً عميقاً .

آه ! أنا أخبر بنفسى يا سيدى من أن أحكم على الإنسان
حكماً فيه رفق أو تسامح؛ هذا الكائن المنفر الذي وقفت حياته

على القذارة والعبودية واعذرني إذ أقول لك هذا صراحة تامة.
فكيف يمكن الحديث عنه في غير غضب؟ لقد لبثت ثلاثة عشر
عاماً أنفق عشرين دقيقة تقريباً في العناية بنظافة جسمي،
وأؤكد لك أنني كنت أنفق هذه الدقائق العشرين كما ينبغي أن
تتفق؛ فقد كنت أتبع نظاماً لا يختلف : اليدين فالوجه فالقدمين
إلخ وكانت الحياة سهلة فلم يكن علي إلا أن أطيع عاداتي .

ومنذ أخذت أصرف جل نهارى في هذه الأعمال نفسها لم
أعد أحسن عمل شيء من برنامجى . فكنت أؤجل دائماً هذا
الشيء أو ذاك، وأنا أؤنب نفسي مر التائب سراً على هذا
التأجيل المكرر. وقد اتفق لى في هذا العهد الغريب أن أمضيت
خمسة عشر يوماً متتابة بغير أن أغسل قدمى، وهذا لأنه كان
لدى عشرة أضعاف الوقت الكافى لذلك. ولا تظن أن هذا كان
نسياناً. كلا ! فقد كنت أنظر إلى قدمى العاريتين بشرود، وأفكر
أن لا بأس من تركهما إلى الغد أيضاً. وما زلت أؤجل غسلهما
من غد إلى غد حتى أصبحتا غاية فى القذارة .

وكنت أشرع فى التدخين أثناء اغتسالى، أو أفتح كتاباً، ثم
أغوص فى ركن من الأريكة وأحلم أحلاماً مضطربة لا تنتهى.
وكانت تنبعث من السرير المشعث نفثات ضخمة من النوم،

وكانت أحلام نومي الكامنة تحت الأثاث، وخلف الأطر، وفي
الأزاهير المرسومة على ورق الجدارن، تطل بعين ثم تخرج في
لطف كأنها الشياطين، فتسترد سلطانها على الحجرة وعلى،
وتتشابك بالأيدي وتدور حول روحى فى رقصة عاصفة، ثم يقف
الزمن فى عين الأبد، كسفينة مشلولة على بحر من العسل .
وتدوم هذه الحال حتى تأتى أمى إلى الباب وتفتحه بلطف،
وهى لا تغفل فى أثناء ذلك أن تتنحنح ثلاث مرات أو أربعاً، فتفر
الأحلام كالفران تحت الخزانة ويفارقنى الخدر، وتقول أمى :

- لويس، أتحب أن أرتب حجرتك ؟

فأصيح وأنا أسرع بارتداء ملابسى :

- أجل، أجل .

ويكون الصابون قد جف على وجنتى، ولم يبق لى وقت كاف
لأخلق ذقنى، فأسرع بارتداء صدرى ولبس حذائى، وأخرج من
الحجرة قائلاً :

. - إنى ذاهب لأرى وظيفة النساخ التى تعرفينها .. فى مكتب

ذلك الوكيل .

فتجيب أمى وهى تطوح مد الذراع بفراش الريش والوسادة،

كأن لم تعمرهما صور كثيرة حية أنا وحدى الذى أعلمها :

- اذهب يا بنى .

وأتناول قبعتى وعصاى، وإن كان بعضهم قد نبهنى فى مناسبة قريبة إلى أن العصا تكسب المستخدم سيماء «الهاوى» التى تزهد فيه الناس ثم أجذب خلفى باب المسكن .

ولا أكاد أغلق ذلك الباب، حتى أرى نور الدرج الأعشى تجول فيه زحمة من الصور المتسلقة الواثبة المداعبة. إن شياطينى هناك. إنها تنتظرنى، كالكلاب التى تريد أن تؤخذ للنزهة. فتحيط بى وهى تنبح، وتلحس يدى وتقفز عند عقبى . وأصطرع - وأنا أهبط الدرج الرطب البالى - بين ألف حلم خرافى، كفريق يغوص مصوباً فى الماء .

* * *

وأخبط فى الشوارع خبط عشواء. والنهار أمامى كأنه صحراء محرقة لا أفق لها ولا مفاجأة فيها ... يضحكنى أولئك الذين يقولون إن الحياة قصيرة .. أسمع ؟ إنهم يضحكوننى . يضحكوننى! إن السنين هى القصار أما الدقائق فطويلة. وما حياتى أنا إلا دقائق .

أسير على الطوار مؤثراً حافته الجرانيتية وأدع طرف عصاى ينغمس فى مسيل الماء جنب الطوار. وأنا أحب مسایل الشوارع،

فهي تجرى على الأرض المرصوفة وتجف في ساعة محدودة وأنا أعلمها؛ وهي لا تولد من منبع، بل من صنبور من الحديد. وأسفاه ! إن نصيب المرء من الشعر لا يعدو ما يستحق. فقد أمضيت - على الرغم من أُمى - شطراً من طفولتى أصطاد الدبابيس الصدئة وأزوار الأحذية الصغيرة من شارع تورنفور وقد انقضى عهدي اليوم بالبطوبة فى الماء الوسخ، ولكنى ما زلت أراقب الشقف الصغير والحصى والغثاء الذى يغسله السيل ويسحبه قليلاً قليلاً صوب البالوعة. بل إن السيل ليغنى أغنيته الحزينة الصغيرة، فأفكر فى السهوب والأنهار، والأقطار التى لن أعرفها أبداً. إنه ماء مدنى آسن، ولكنه ماء على كل حال ! البحر ... البحيرات العظيمة ... سيول الجبال ! لئن مررت بشارع لاموند فى وقت متأخر من المساء، ساعة تهمد أصوات باريس وتنام، لتسمعن من تحتك كل بالوعات جبل سنت جنفييف تغنى برقة وكأنها شلالات بعيدة. إنها الشلالات فى رحلاتى أنا .

وكيف يكون الأمر غير ذلك وأنا لم أغادر باريس، ولم أر شيئاً، ولا أعلم شيئاً ؟ أنا رجل نكرة لا يؤبه له. أجل، أجل، رجل لا يؤبه له. وليس لدى شىء خارق أحدثك به، فكل وقائعى حدثت فى باطنى. وإنه لكرم منك أن تستمع إلى أنا الذى ليس لدى ما

أقوله لك، أنا الذى لم أخلق إلا من توافه .

كنت أسير على الطوار إذاً . ولم يكن شقائى شديداً، فقد كان لى من الروح ما يكاد يعادل روح عذراء دودة القز، ولم أكن أتعجل تحطيم غشائى . وما كان أشد رغبتى أن أظل حتى المساء فى هذا النوع من الخدر الذى يمد لى فى الليل مداً، ولكن أجهزة شتى كانت تبدأ عملها - وأسفاه ! - فسرعان ما تأتى نهاية ارتياحى .

وكان ذلك يبدأ فى أكثر الأحيان بتلك القصة السخيفة : قصة عدد الخطى، أتدرك ما أرمى إليه ؟ إن قطع الجرانيت التى تكون حافة الطوار موضوعة طرفاً لطرف .

فكنت أمشى فوقها أول الأمر غير مفكر فى ذلك ثم أبدأ ألاحظ أنى أضع قدمى بين كل خطوتين على الفرجة بين الحجرتين ثم ألتزم - شبه مرغم - أن أخطو خطوتين بالضبط بين كل فرجة وأخرى ألتزم ذلك بغير أن ألتزمه، ألتزمه بغير أن يبدو على أنى أفعله .

لأنى - أولاً - أخجل أن أعرض على المارة مشهد حماقتى؛ ثم لأنى مقتنع كل الاقتناع بأن ذلك لا يعدو لعبة من جسمى، لا يشارك فيها روحى بنصيب .

وإليك ما فى هذا الأمر من جنون : تأتى لحظة لا أستطيع فيها أن أذود فكرى عن قصة الفجوات هذه، ثم أحس قليلاً قليلاً، وأنا أظهار بأنى لا أقيم للأمر وزناً، أنى أمد خطوتى أو أقصرها حتى تقع نعلى على الفجوة تماماً. وأفعل ذلك بغير اكثرات، كأتى أود أن أخفى عن نفسى ما أفعل. وتستمر هذه الحالة زمناً. ثم ألاحظ فجأة أن الخيال يبدأ دوره. فأقول لنفسى - لا، لست أنا الذى أقول بل هو شىء فى نفسى، بغير أن يكون هو نفسى - أقول لنفسى إنى إذا لم أبلغ ثالث مصباح من مصابيح الغاز وأنا أخطو بانتظام خطوتين على كل قطعة جرائيت، فسوف يقضى على حياتى بالضياغ، وعلى محاولتى بالفشل. فإذا وصلت إلى ثالث مصباح عينت لنفسى واجبا آخر، كأن أصل بتلك الشروط نفسها إلى كشك لبيع الصحف . واحد، اثنان، واحد، اثنان ... أفاهم أنت ؟ ذلك والشيطان يتمتم : إذا سار كل شىء كما ينبغى .. إذا ضبطت خطوتيك، فلا بد أن يصيبك بعض الخير فى يومك هذا .».

آه ! أمممكن حقا يا سيدى أن يكون المرء غيباً إلى هذا الحد؟ تذكر أنى لا أؤمن بته بالخرافات، وتذكر على الخصوص أنى حين كنت أتصنع هذه الأحاسيس لم أكن أكف عن التأمل فى

نفسى تأملا يشوبه الاحتقار بل فى أكثر الأحيان عن التفكير فى أمر بعيد .

وقد تكون هذه القصة المضحكة، قصة الهاوية. وسأشرح لك ذلك. وإنى لأخجل منه؛ لكن مادمت قد شرعت أفضى إليك بكل شىء، فلأفض إليك بكل شىء. وأعنى أنى لن أقول لك أشياء كثيرة، فإن ذلك الذى يحاول أن يشرح فى عشرة مجلدات ما يخطر على قلب إنسان فى دقيقة واحدة، إنه ليحاول أمراً فوق طاقة البشر .

كنت أسير إذن على حافة الطوار سيراً سهلاً طبيعياً، ولا أفكر فى شىء معين . وإذا بى أتخيل - أو هى على الأرجح فكرة أكثر منها خيلاً حقا - أن على يمين الحافة الضيقة وعلى يسارها هاوية، وأنه يجب أن أتقدم بلا أدنى عثرة؛ ويكون ذلك حسبى حتى أتردد، وتضطرب ساقي، وأتعثر فى مشيتى، ثم ينتهى أمرى بأن أضع قدمى على الطوار أو فى مسيل الماء .

وحينئذ يسرى عنى، فقد بطل السحر، وأغير الطوار أو أنتقل إلى وسط الشارع، وألث برهة طويلة لا أفكر فى هذه الحماقات. ثم أصل إلى مفترق طرق، وهذه قصة أخرى! فإن تعدد المسالك يسلمنى إلى نوع من الذهول .

ولم يكن يعرفونى من قبل وأنا ذاهب إلى المكتب شىء من هذا التردد. فقد كان هناك طريق واحد يبدو لى ممكنا : هو ذلك الذى ثبتته اعتياد خمسة أعوام أو ستة، هو ذلك الذى أقامت صواه علامات كثيرة معهودة. أما النزعات التى أحدثك عنها فشأنها غير هذا الشأن، فخطاى فى أغلب الأحيان لا تتجه إلى قصد معين، ووقتى لا أجد فيه ضيقاً. وإذن فأنا أقف عند زاوية منزل، أمام دكان كئيب المنظر، أجدب يسرة، وأدفع يمناً، موزعاً مذبذباً، أدور حول نفسى كزورق يسحبه التيار فى وجهة وتحته الريح إلى ضدها. فأغمض عيني وأستخير الحظ.

وعلى الرغم من ذلك يتفق لى وأنا سائر على هذا النمط أن أصل. أو بعبارة أخرى أنتهى إلى أن أجد نفسى فى مكان لا كسائر الأمكنة. ويكون ذلك مثلاً مكتب الوكيل، حيث وظيفة . النساخ .

فأدخل، وأنتظر ويسار بى إلى موظف كبير، وأجد دائماً شيئاً معطلاً فيما أن الوظيفة قد شغلت منذ البارحة، وإما أنها لا تصلح إلا لشاب حديث السن، وإما أنها تتطلب خبرة خاصة تعوزنى .

وربما طلب منى «رئيس الكتبة» ما لدى من شهادات

مستخدمي السابقين . فأعده بأن أحضرها في غد ثم أتحرج
مسرعاً على الدرج .

وينتهي نهاري، فقد حاولت، وأثبتت لي محاولتي مرة أخرى
أنه من المستحيل على أن أظفر بعمل. وكان هذا اليقين هو عين
ما أطلب .

وأذهب بعد الغداء إلى حجرتي الصغيرة، واثقاً مما ينتظرني
هناك، وإن تجاهلت هذا الذي أعلم .

أه ! لو أنني - يا سيدي - أخاتل ألد أعدائي نصف ما
أخاتل نفسي لكنت في الحقيقة وغداً .

وأشعل عقب لفيفة، وأبسط الصحيفة، وأكتب رسالة تافهة.
وأسمع الأصوات التي تحدثها أمي وهي ترفع أدوات المائدة أو
تغسل الأنية، فأقول بصوت عال :

- إني عازم على أن أذهب وشيكا إلى مصنع مونتروج هذا.
أتعرفينه يا أمي ؟
أو أقول :

- لم أتلق بعد رداً من محال مالندوار وسيمونيه إنني أبحث
في مصورة باريس ..

هذه أمثلة من السخافات التي كنت أقولها لأستبعد الأسباب

التي اجتذبتني إلى حجرتي .

ولكنى أرمق أريكتي البالية من طرف خفى، فأجد فيها
الاستهزاء الخبيث المتعالى الذى تجده فيمن ألف الظفر. وأنظر
إليها بغيظ قانط. فتكتفى بأن تتشاءب بكل ما فى كسائها من
خروق .

وأذهب إلى النافذة وأطالع السحب مهتما. هل يجب أن أحمل
مظلة ؟ لا ! وأحكم رباط عنقي أمام المرآة، وأتصفح مذكرتى. ثم
أجد نفسى فجأة ممدداً على الأريكة وأنا لا أدري كيف حدث لى
ذلك. فأسمع بظهرى الأسلاك الحزونية تكتم ضحكة مهينة .

لا ضير ! لقد كنت ممدداً كزورق فى قاع جون. وكانت
الأمواج تحملنى، وكنت أسمع التيارات والنسمات، وكان شيطان
الليل يعقد ذراعيه على صدرى فى عناق وثيق، فنغوص كلانا فى
العالم الآخر، ونحن متشابكان ووجهى لوجه الشيطان .

وكانت اليقظة فظيعة والجسد أثقل من جبل، وفى الحلق
حموضة الطعام الذى لم يهضم بعد .

وأتناول قبعتى وعصاى ثانية لأعود إلى الشارع .

وكنت أفكر أحيانا فى وظيفة بعينها يقيض لى أن أعثر عليها
وأظفر بها، وأتخيل ألواناً من السعادة لا يقبلها العقل، سأحصل

على وظيفة سكرتير أجل، وظيفة سكرتير ! وسيكون لى مكتب
مستقل، له نافذة تطل على شجرة تغمرنى بضوء أخضر حزين،
وسأترك فى وحدة تامة، بل سينتهى الأمر بأن أنسى بعض
النسيان، وأعيش ثمة فى سلام عميق، وأظل هادئاً هادئاً كأنى
ميت .

سيدى ! ستظن بى ظنا قد لا يكون فيه صواب كثير. ستظن
أنى دنىء الخلق وأنى أكره الناس، أنا أكره الناس ؟ هذا غير
معقول. فأنا أحب الناس ولا ألام إذا لم أستطع احتمالهم فى
أكثر الأحيان. إننى أحلم بالوفاق، أحلم بحياة متناغمة واثقة
كعناق أبدى. وعندما أفكر فى الناس أجدهم جديرين بالحب
حتى إن الدموع لتطفر إلى عيني. ليتنى لا أخاطبهم إلا بكلمات
الود، ليتنى أفرغ قلبى فى قلوبهم، ليتنى أشارك فى آمالهم
وأعمالهم وأشغل مكاناً فى حياتهم، وأريهم مبلغ وفائى وثباتى
على العهد واستعدادى للتضحية! ولكن فى نفسى نزقا
وحساسية وانفعالا، فلا أكاد أجد نفسى وجها لوجه مع كائنات
حية تشبهنى - لا مع صور خيالية - حتى تفيض شجاعتى،
وتهيج حواسى، ولا أتمنى إلا أن أعود إلى وحدتى، لأسترد
محبتى للناس، كما أحبهم حين يغيبون عنى ولا تقع عليهم عيناى

ها أنت ذا ترى أنى أبذل ما فى وسعى لأشرح لك أشياء لا يمكن أن تشرح، ولأبين لك على الخصوص أنه إن بدت منى كراهة للناس فما ذاك إلا لأنى مفرط فى محبة البشرية .

وقد تقول لى إن مثلى ينبغى له أن يلتمس سعادته فى الأشياء. وأنا أفهم ذلك جيداً، ولكن الضرورة تلزمك أن تبذل للأشياء أولاً لكى تجلب لك المسرة، وأنا فى أغلب الأحيان روح عقيم قاحل لا يستطيع أن يبدأ بالبذل.

وهكذا كنت أسير فى الشوارع أجتر حياتى، وأقرر فى كل دقيقة تقريباً أن الحياة تروغ منى، وأنى خذلت، وأنى فقير حقاً، وأنى بئس .

ورأيت ذات يوم فى شارع ألم، وهو شارع يغلب عليه الهدوء، عاملاً صلباً يجر عربة يد. وكانت العربة موقرة والعامل كضفدع تسحب سفينة، وكان يمسك بإحدى يديه إحدى ذراعى العربة، وبالأخرى .. أه .. أحزر ! كان يمسك بالأخرى كتاباً ويقرأ - وهو يجر عربته - بعينين تبرزان من رأسه .

لست أدري ماذا كان يقرأ هذا الصبى. ولكنى لبثت طوال المساء وقد انطبع فى نفسى إحساس كئيب بالحسد والخزى. فقد بدت لى حياة هذا الفتى الطيب الذى يقرأ بين ذراعى

العربة، حياة مليئة غنية مرموقة، إذا قيست بحياتى العادية الجوفاء .

وغالباً ما كانت نزهاتى على الطوار تسبب لى حوادث كريهة. وإنى أطلق اسم «الحوادث» مرة أخرى على أشياء ليست من الحوادث فى شىء، أى على أشياء لا تجرى إلا فى باطن الكائن.

كنت أسير بخطى منتظمة مستغرقاً فى أفكار قديمة، وذكريات، وأحلام بتراء؛ ولم أك أنظر من يسرون فى اتجاهى، ولا من يسرون فى الاتجاه المقابل له. وإذا بامرأة كانت تمشى أمامى ولم أكد أراها تلتفت مستاءة وتغير الطوار فجأة.

وأؤكد لك أن هذا كان أمراً محنقاً، وأنه ملأنى مرارة. الأمر فى طريقى التعس فأظن تبع نساء من أولئك الحمقى الذين يسرون فى الأعقاب ؟ وما ذلك إلا لأنى قد أكون مشيت ثلاث دقائق أو أربعاً كما تمشى هذه الخرقاء. وهاتيك حياة المدن الكبيرة ! يجب أن تكون لك مشيتك الخاصة بك، وأن تعمل على ألا توافق مشية غيرك، فإذا مشيت كمشية أحد سواك فقد اعتديت على حريره بعض الاعتداء، أو لعلك قد روعت حيائه، علينا أن نعيش مع ملايين من الكائنات أمثالنا؛ متظاهرين بأننا

لا نراهم بل متعمدين الفرار منهم فى أدب وحسن عشرة .
وأعترف لك بأن هذا كله يثير اشمئزازى، ويسببه تعودت أن
أختار الشوارع المقفرة من الناس .

وهذه الشوارع نادرة فى باريس. ولهذا كنت مضطراً - فى
أكثر الأحيان - أن أمر على كره بأماكن شديدة الحركة. ومن ثم
وجدت نفسى ذات مساء فى سوق ليون ده بلفور بطريق أرجو.
وإنى لأذكر ذلك المساء لأنى رأيت شيئاً عجيباً : شيئاً أجده
محزناً وقد تجده أنت مروحاً، إذ كانت الحقيقة أن لا شىء فى
محزن على الإطلاق .

ذكرت لك أنى كنت أسير فى طريق أرجو الذى تحف به فى
هذا الجزء أخصاص حقيرة قذرة تكون حافة السوق. تلك
الأخصاص التى تباع فيها الفطائر «الذائبة» الخضراء والوردية
الألوان، والتى تكسر فيها الأنابيب بطلقات البندقية، وتعرض
فيها امرأة نصفها سمكة ... أشياء - فى اختصار - تجعل
المرء يبكى سأمًا .

وفجأة رأيت شيئاً كالخيمة، وضعت عليه قطعة من نسيج
القطن، تعلن أن فى داخل هذه الخيمة «البروفسير مستيناكس».
يكشف المستقبل بالطرق المغنطية» . وكان أمام الخص جمع

صغير من العمال والجنود والمتبطلين، كما كان هناك شيخ شريد
له أحية بنت خمسة عشر يوما، بيضاء ناصعة، وتستتر جسمه
الأسمال، ويلوح على وجهه المنهك قنوط ساغب لا أستطيع
وصفه. رجل أشقى على الهلاك؛ ووهن منه العظم، تنبعث منه
ريح بؤس مقيم .

ثم إنه دخل الخص يا سيدي. دخل وراء الخادومات
الصغيرات وعمال المتاجر وصبيانها. وكان قابضا يده بشدة
على عشر فرنك لا شك أنه نصيبه من جهد نهار، فقدمه في قلق
وتردد باديين ليدخل السقيفة حيث يحدث عن مستقبله .

تلك أشياء كنت أراها في جولاتي .

* * *

(٦)

إننى أطيل الوقوف عند تفاهات أرويتها لك وأغفل السلك الذى
ينظم قصتى .

لقد استمرت الفترة التى حدثك عنها إلى شهر أكتوبر على
وجه التقريب. ولم أكن أحسب الأيام، بل كنت أحس الزمن ينزلق
من تحتى ولا أسأل نفسى أكثر من ذلك. الحياة الحقة ؟ إننى
كنت أؤجل الحياة إلى ما بعد ذلك، إلى التاريخ غير المحدد الذى
ستقع فيه الأحداث التى يجب أن تقع لى. أفاهم أنت ؟ على أنى
لاحظت تغير الطقس، فقد جاء البرد وقالت لى أمى ذات يوم :

- لويس، ينبغى أن تلبس ملابسك الشتوية بعد وقت قصير .
وكان عندى للشتاء حلة كاملة عتيقة رمادية، أحبها كثيراً.
وقد أبقت عليها عناية أمى بعض الاحتشام، ولكن نسيجها كان
ناعماً رقيقاً مصقولاً حتى ليبدو عليها الذل والتعاسة. وكان ذلك

يسرنى. فقد كانت تلك هى الحلة التى لاء مت بينها وبين روحى،
وكنت ألتمس كل يوم جميع ثنانيا هذا الرداء وعاهاته وترميماته،
وكأنها عاداتى الشخصية أو مظاهر فقرى الباطنى وبفضل هذا
السروال الأحنف الناحل وبر الركبتين، وبفضل هذه الصدرية
الباهتة الحدباء، كنت أطمئن إلى أنى سأمر غير ملحوظ. وهو
نعمة كبيرة من نعم الحياة .

لهذا جعلتنى أمى ألبس ردائى الشتوى وهو هذه السترة
المدفئة المائلة إلى السواد، والتى تراها على اليوم، وكانت أقرب
إلى الجدة آنذاك وكنت أستبشعها، وما زلت ألعنها .. أنظر إلى
أطرافها المضحكة التى تجعلنى أشبه شىء بالخنفساء ! أمن
الممكن أن يضطر الإنسان فى سبيل كسب عيشه لا إلى النزول
عن وقته فحسب بل إلى تضحية ميوله أيضا وإلى التخلّى عن
مظهره الخارجى كذلك ؟

كنت ألبس هذه السترة إذن فى جولاتى ونزهاتى، وكنت لا
أحمل فى العادة إلا مقادير تافهة من النقود لا تعدو كسور
الفرنك، إذ لم أكن أجرو منذ فقدت وظيفتى على أن أطلب من
أمى نقوداً، ولم تكن المسكينة لتحديثنى قط عن هذه الأشياء،
ولكنى كنت أشتري لها أحياناً بعض الحاجات، ولا أرد إليها

بقية النقود، فكانت وسيلة مستورة بعيدة تكفى لمدى بالفلوس القليلة التى تفى بضروراتى الضئيلة. ولا تظن أنى كنت أنفق شيئاً، ولكن الأمر لا يخلو من سيارة عامة أو قطار كهربائى، أو طابع بريد من حين إلى حين .

وكان هذا النوع من البؤس، الذى لم أهتم له وأنا فى حلتى البالية، يبدو لى مروعاً حين أحمل سترة من صوف اسكتلندا تليق ببورجوازى أو موظف رافه. وكانت هذه السترة تبدو لى - فى تنافرها مع حالة جيبي - كذبة لا تحتمل. ولا شك أنى مدين لها بأفكار شتى عارية عن المنطق، وبسببها أيضاً بدأت أبحث عن العمل بحثاً أكثر نشاطاً وأدنى إلى الواقع .

إن الوظائف كالأفكار، تجدها حين لا تبحث عنها، فما أكثر تسرع أصحاب المراكز الطيبة الثابتة من الناس إلى أن يقولوا : «إن الفتى الشجاع القوى العزم حقاً لابد أن يصل ..» أه! سيدي! الحظ والنجاح يستطيعان أن يجعلا الناس ظلمة أغبياء! منذ تلك اللحظة التى قلت فيها لنفسى، بحسرة الواقع : «هيا هيا ! يجب أن أحصل على عمل !» انطبع فى نفسى إحساس مبهم ولكنه ملازم عنيد، وهو أنى لن أجد عملاً ما. وقد كان أن لم أجد عملاً ما، أو عملاً يمكننى قبوله دون أن أحط من

كرامتى.

جدار ! جدار ! إحساس بأنك أمام جدار شاهق، شديد
الملاسة عظيم السمك، وأن هذا الجدار هو المستقبل، وأنك لا
تستطيع أن تعلوه ولا أن تهدمه ولا أن تنفذ منه. إن الذين لم
يجربوا في حياتهم غير السعادة لا يستطيعون أن يدركوا مثل
هذا الإحساس .

لقد اتفق لك - بلا ريب - أنك انتظرت أحداً في المساء في
ركن شارع تحت مصباح من مصابيح الغاز. وقد اتفق لك أن
انتظرت ساعة ثم ساعتين، ثم علمت أن الشخص الذى تنتظره
لن يأتى، وعلى الرغم من ذلك ظللت تأمل. لقد اتفق لك أن خبرت
مثل هذه الأمور، كما جربت ألم الانصراف والتلفت مرة في كل
عشرة أمتار، وإن كان جلياً أنه لن يأتى أحد .. جربت ألم التلفت
والنكوص، وإن كنت موقناً أن ذلك كله لن يجدى عليك فتيلاً .

كانت حياتى تشبه من كل وجه هذا الانتظار الذى لا يجدى،
فى ركن الشارع، تحت مصباح الغاز ووابل المطر. فقد كنت
أعلم أن الرجاء عبث كله، وكنت مع ذلك أصرطع (مرات كثيرة
كل يوم) حركات الأمل الراجى، وأسلك مسلكه .

وكان الشئ العجيب فى أمرى أثناء جولتى - فى هذه

الأوقات من العزلة المتحركة – هو النشاط الزائد الذى تميز به تفكيرى.

.. من العسير أن تعبر بالتحديد عما تريده. فأنا حين أتحدث عن النشاط الذى كان يميز تفكيرى ألاحظ أنى لا أترجم الحقيقة بته، فالقول أنى كنت أفكر بنشاط قد يوهم أنى كنت أعكف على التفكير عكوفاً إرادياً ظافراً. مع أن الأمر خلاف ذلك . فالواقع أن الشيء الذى يسترعى النظر هو – على الأرجح – السلبية التى كنت أفكر بها. فقد كانت تساورنى وتنتابنى وتنغصنى وتأسرنى ألف فكرة أخضع لها ولا أبتعثها أنا بوجه ما. فهل أستطيع القول أنى كنت أفكر ؟ هل أستطيع أن أدعى هذه الصفة ؟ أليس الأصح أنى كنت الشاهد العاجز، أو أنى كنت الفريسة ؟ أليس الأصح أنى كنت ساحة المعركة التى حاق بها الدمار ؟ بلى. الحق أنى ما كنت أفكر، وما كنت أفعل شيئاً لأفكر، وإنما كان التفكير يدور فى، وخلالى، وتجاهى، وضدى، كان التفكير يدور بلا مشقة على حسابى، كما يقام معكسر فى قطر مغزو .

هناك – ولا شك – ألباء مجددون يعتمدون أن يفكروا فى موضوع بعيد وينفذون ما اعتمدوه . هناك من هم قادرون على

أن يسيروا روحهم كالسفينة على بحر تناثرت فيه الصخور ...
أناس يفكرون حقاً، أى يفكرون فيما يريدون التفكير فيه، فيالهم
من سعداء !

أما أنا ففي أكثر الأحيان مجرى نهر ! أحس تياراً جياشاً
يتدافع، بيد أنى أحتويه. ثم إنى - وانتبه لكلماتى - لا أحتويه
دائماً، فهناك الفيضان .

ولك أن ترى الأمور كما تشاء، فالحقيقة الواقعة هى أن
روحي غدت مسرح ثوران شديد، وأنا أطوف باحثاً عن هذه
الوظيفة التى لا تنال .

وهناك تقع حادثة سأحاول روايتها لك، ويجب أن أرويها لك،
ولكنى لا أستطيع روايتها فى يسر ولا فى هدوء .

عدت إلى المنزل فى أمسية من أمسيات وسط أكتوبر، ولعل
الساعة كانت السابعة أو الثامنة، وكان ينزل حينذاك مطر من
تلك الأمطار التى لا ينبغى أن نقول عنها إنها تنزل. لأنها كالتى
تنضح من الهواء المدنف، والأرض، والأشياء، والناس .

وكنت قد رفضت فى عصر ذلك اليوم عرضين أو ثلاثة عروض
شائنة : أعمالاً كأعمال العبيد أو الآلات أو الدواب. وكنت أسير
فى شارع فوجيرار مقبلاً من أقصى جرينل. وأخذت أسترجع

نهارى. فما طالعنى منه إلا وجه كئيب شرس، ولم يكن فى جيبى
ما أركب به السيارة العامة، فمشيت غير مسرع بين برك الماء
والوحد، وأنا ثمل بيأسى ومراراتى .

فلما حاذيت شارع لتريه - وإنى لأذكر المكان جيداً كما ترى
- خطرت لى فكرة وهى أننى عندما أصل إلى المنزل سأعلم أن
أمى قد ماتت فجأة .

وأرجو أن تلاحظ أنه لم يكن ثمة سبب ما - ولا ثمة الآن أى
سبب - يجعلنى أخشى هذا الأمر. فليس لأمى من العمر إلا
ستون عاماً، ولا أعرف بها علة، وهى تنعم بصحة طيبة منتظمة.
ولهذا لا أفكر فى موتها البتة إلا كما أفكر فى حادث بعيد، أو
غير محتمل .. حادث يكفينى تخيله لتمتلىء عيناى بالدموع .

ففى ذلك المساء بينما كنت أنعطف من شارع لتريه، خلتنى
أعود إلى المنزل وأجد أمى ميتة. وحاولت أن أطرده هذه الفكرة
غير المعقولة، وأؤكد لك أنها لم تكن فكرة مزعجة، إذ لم تكن من
جنس الإلهام الذى يستبق الحوادث، بل كانت مجرد تأليف
أفكار .. حاولت كما قلت لك، ولكنى سرعان ما لاحظت أن هذه
الفكرة لم تأت وحدها، فبينما كنت أحاول ذودها عنى، كانت
تهاجمنى أفكار أخرى شتى الأشكال، كأنها نتائج للفكرة الأولى.

وكانت تهاجمنى مهاجمة منطقية، كما يكون الهجوم الحسن التركيز .

كانت أمى ميتة. لم ؟ وماذا بعد ؟ ما الذى يحدث؟ الدفن. ورأيت الدفن، والنعش، والشوراع الصغيرة، والمقبرة. كل ذلك رأيت. ثم ماذا ؟ المنزل الخالى. ثم ماذا ؟ رأيت نفسى، وحياتى كلها ترسم من جديد .

سرعان ما رأيت حياتى ترسم من جديد، لا بطريقة معينة بل بطرق كثيرة مختلفة.

وكان أول شىء خطر ببالى هو هذا : هناك الدخل القليل. وقد حدثتك عنه من قبل. إنه مائتان وأربعون فرنكا فى كل ثلاثة أشهر. وهو ملك اسمى لى، لا يحاز ولا ينقل، بل لا يجوز رهنه، وتلك فكرة غريبة لعم لى مات مفلوجا .

وقصارى القول إنه كان هناك الدخل القليل. ثمانون فرنكا فى الشهر. فنظمت حياتى، واستأجرت غرفة، وصرت حراً .. حراً وبائساً. الخبز والبطاطس. دخلت فى صدفة من الوحدة المستوحشة، لم يبق للناس حقوق قبلى. كنت أحيى لنفسى. بمرارة وهكذا كنت أنتظر الأشياء التى لا بد أن تحدث لى فى المستقبل، وأنا فى استقلال مسكن. أه ؟

أه ! وجدتني فجأة أمام مجلس الشيوخ، ولم أدر كيف وصلت إلى هناك. وجدتني أمام مجلس الشيوخ، ورفعت قبعتي التي بلل ظاهرها المطر وباطنها العرق .

وتملكتني رعشة شديدة. ونظرت في ضوء المصباح مرعوباً إلى يدي النديتين المرتجفتين كيدي سكير أو قاتل خورا . وعادت السير على حافة الطوار .

إذن فهذا هو الرجل الذي كنته ! لقد فكرت في موت أمي، فكرت فيه بهدوء، وسرعان ما نظمت حياتي بغير أمي. ألفيتها فكراً لأتمتع بالدخل القليل. هذا هو الرجل الذي كنته .

لن أستطيع أبداً أن أقول لك ما حدث. لقد نشب في باطن وجودي صراع. وكان صوت جلي رشيد يقول : «هذه أفكار غير معقولة فيجب أن تحتقرها وتطردها» وكان صوت آخر صافر محنق يردد بعناد : «جبان ! جبان!». ولكن صوتاً ثالثاً كان يعد بوضوح وهدوء، على الرغم من تلك الجلبة : «عشرون فرنكا في الشهر للغرفة، فيبقى فرنكان كل يوم للمعيشة. ثلاثة أرباع فرنك للغداء، ونصف فرنك للعشاء، ثم الكتب، والثياب، والحرية» .

أمررت يدي على وجهي وأنا أتنفس بصعوبة، وكانت وجنتاي تتصببان ماء، ولا أظنه كان دمعاً، فقد كان يزداد انهماراً، وكنت

أحس إعياء واشمئزازا .

وجلست برهة على السور الحجرى الذى تشقه بوابة
لكسمبورج وبدا لى أن هذه الراحة لعضلاتى تهدىء غليان
أفكارى، إن صح أن أسمى «أفكارى» هذه الحشرة التى لا
أستطيع قمعها ولا التخلص منها. وشعرت أنى أتمالك نفسى
قليلاً، وأنى أضطر روحى إلى حالة من السكون، تذليلك حصاناً
حروناً يجذب أعنته جذباً شديداً. كنت أفكر ببطء وأنا أحرك
شفتى، كنت أفكر كلمة كلمة : «إذا ماتت أمى ..»، وسرعان ما
شعرت بحلقى يكظمه الأسى، وعصر معدتى حزن عميق كنت
أعرفه جيداً، لأنى جربته من قبل. وإن جاز هذا التعبير قلت إننى
قد سرى عنى لهذا الألم أيما تسرية، ففكرت مرة أخرى : «هذه
فكرة نابية كل النبوء، فما من سبب يجعل أمى ترحل عنى ..» لا،
لم يكن هنالك من سبب، وأخيراً قلت لنفسى : «لا يمكن أن
يصيبنى شر أكبر من هذا». فأجاب حزنى كله : «لا ! لا ! لا ! لا
شر أكبر من هذا» .

وهكذا استطعت أن أعتقد - بضع ثوان - أننى قد استرددت
السلطان، وأنى استعدت القدرة على توجيه روحى .

وتنبهت فى تلك اللحظة إلى أنى لست وحدى بحذاء بوابة

لكسمبورج. فقد كان هناك شيخ بائس على رأسه قبعة مدورة كورها المطر، وكان يقترب في هدوء وهو يمشى على حافة الطريق، وحقواه يحتكان بالجدار الصغير المنخفض. وكان يقول بصوت خفيض : «الصحف ! الصحف!» فلا يسمعه أحد .

وعرفت فيه الأعمى الذى يقاد ثمة كل مساء. وكان رأسه مائلاً بعض الميل، مردوداً إلى الخلف قليلاً، ووجهه الجامد المغلق يستقبل المطر، فلو رأيته لقلت إنه يسير زحفاً، وقف على قيد خطوتين منى، وكأنه أحسنى، أو كأنه شعر بضوضاء حياتى. فنظرت إليه وغمغمت :

– هذا! هذا! فيم يفكر هذا ؟

– وكدت أدنوه منه وأكلمه. أى كلام ؟ أى كلام ؟ لم يكن هنالك وجه اشتراك بين هوته وهوتى .

وعاودت السير. فرأيت الأعمى بدأ يزحف بحذاء البوابة، وكأن ابتعادى ترك له الطريق خالياً .

وظللت فى شبه هدوء حتى وصلت إلى ميدان پانتيون. وأعنى أننى كنت فارغاً أو مقفراً من كل فكرة. فلما دخلت فى شارع ألم إذا بى أحسب : «ثلاثة أرباع فرنك للغداء. نصف فرنك للعشاء. سأغسل ملابسى بنفسى. لا حاجة إلى البحث عن عمل

منذ الآن. الوحدة !».

ورفعت كتفى متألماً، وعزمت على أن أدور دورة صغيرة حتى لا أعود إلى المنزل توا. وهذا برهان لك على أنى لم أكن فى الحقيقة أشعر بقلق، فقد كنت أعلم جيداً وأحس جيداً أن أمى بمنأى من الخطر، وأنها لم تكن محفوفة بالخطر إلا فى، فى أنا وحدى .

رجعت أدراجى أمشى متمهلاً صوب شارع كلوفيس. وكنت أفكر بنظام وإلحاح : «إذا بعث أكثر الأمتعة فسوف يكون فى استطاعتي أن أرحل رحلة قصيرة» .

إذن فلا شىء يمكن أن أفعله ! إننى ما عدت أفكر بالجمال الشرطية بل بالأفعال المستقبلية لا شىء يمكن أن أفعله ! لم أكن سيد أفكارى، فعبت أن أقاوم، وعبت على الخصوص أن أضلل نفسى عن جريمتى هذه، فما كان فى طوقى ألا أفكر تفكير المجرمين .

سبرت على مهل فى الشوارع الصغيرة التى توصلنى إلى شارع پوده فير. ونفذت إلى منزلى، وأنا مقتنع كل الاقتناع بأنى ما زلت أحب أمى حبا ملؤه الحنان، ولكنى عاجز كل العجز أن أصد عنها خيالاتى، وأن أحميها من أن تقتل فى باطنى، وألا

أقتلها فى باطنى..

* * *

كانت المائدة تشغل معظم المساحة الخالية وسط الغرفة، وقد تجردت من المشمع الذى يغطيها عادة، وطولت بوصلتيها. وكان مصباحنا القديم ذو القائمة الرخامية ينير قطعاً من النسيج مقصوفة وموضوعة على المائدة، ونماذج مصنوعة من النسيج الموصلى، وعلب دبابيس، وكرات خيط. وكانت امرأتان تخطان وهما مائلتان نحو المصباح، وشعرهما يكاد يختلط بعضه ببعض. وكانت هاتان المرأتان هما أمى ومرجريت، جارتنا الخياطة التى حدثك عنها من قبل.

وقفت فى إطار الباب، وعرانى - وأنا أنظر إلى المشهد الهادئ - انقباض شديد .

ورفعت أمى عينين بهرهما نور المصباح، والتمست وجهى فى الظلام، ثم ابتسمت ابتسامة حلوة مستعطفة وقالت :
- أهذا أنت يا لويس؟ إن عشاءك معد فى المطبخ يا ولدى، وقد تركت الحساء على نار لطيفة .

ودقت بكشتبانها المائدة مرتين أو ثلاثاً، كما تفعل الخياطات غالباً، وأردفت بصوت فيه شىء من الاضطراب :

– لقد استولينا على غرفة الطعام كم ترى. إن مرجريت مثقلة بالعمل، ولذا أساعدها قليلا .

فمضيت إلى المطبخ ولم أقل شيئاً. وماذا يقال ؟ ألم يكن الأمر واضحاً بحيث أفهم ؟

أمسكت الإناء الذى كان ينش فيه الحساء، وجلست فى مكانى المعهود بين البالوعة وخزانة الخشب الأبيض، وشرعت فى الأكل .

هذا إذن كل ما أستطيع أن أفعله أنا : الأكل، ثم إيواء ألف فكرة مرعبة، ثم حساب منافع الدخل القليل : وهذا هو السبب الذى من أجله تسهر أُمى لتخيط الصديريات .

كفتنى نظرة واحدة لأفهم كل شىء : مرجريت، والنماذج، وفضلات النسيج، وكرات الخيط، وعينى أُمى اللتين ترقبان مسرى الخيط المستبهم فى النسيج الأسود . وفى آخر السهرة فرنك وخمسون سنتيما، أو فرنك وخمسة وستون سنتيما .

لم أستطع أن أمنع نفسى من التردد : «ثلاثة أرباع فرنك للغداء، ونصف فرنك للعشاء ...» وكأنى أود أن أنقش هذه الكلمات على جلدى، أو أرسمها على قلبى بوخزات الدبابيس .

شريت الحساء كله ثم أكلت شيئاً من العدس كان هناك، ثم

قطعة صغيرة من السجق، ثم قطعة من الجبن. «نصف فرتك للعشاء!» لقد التهمت كل ما وجدته، فكان خزيي لذلك أكبر مما أستطيع أن أقدر .

وكنت أستمع وأنا آكل للعاملتين وهما تتسامران بصوت خفيض. وأحياناً كنت ألمح حركة، وحفيف ثوب، وضوضاء آلة خياطة تنخر الصمت بضع دقائق. ثم يسود السكون من جديد، تتخلله بين لحظة وأخرى هذه الشبهة الصغيرة التي تأتيها النساء ليسترجن ريقهن الذي يتسرب من بين شفاههن المنفرجة .

ولما انتهيت من طعامي، عبرت حجرة الطعام، لم أنطق بكلمة ولم أتوقف، ودخلت حجرتي، وخلعت حذائي المبتل بالماء، وانطرحت على الأريكة .

كانت حجرتي مظلمة، وكان يدخل من الباب الذي ظل منفرجاً ضوء قليل حزين، يكونُّ لوحة من تلك اللوحات التي تبقى حية عميقة في الذاكرة : ركن من الأرض الخشبية اللامعة، وشيئان أو ثلاثة شبه مكفنة بالظلام، والزاوية البارزة لإطار، والشبح الصلب الأكف لستار .

كنت هادئاً كل الهدوء. كنت في تمام الصحو والبرود. وكان

الإحساس الغالب على هو التعب والاستسلام .

لا شيء يمكن أن أفعله ! محال أن أنكر أن فى ثناياى رجلاً قادراً على التفكير فى موت أمه، رجلاً قادراً على أن يحسب سعادته الحقيرة مقدراً موت أمه أول شيء. وأمى تعمل فى تلك الأثناء لتطعم هذا الشخص، لتكفل له الحساء والعدس والسجق. وجرت محاولة للتوفيق : «هون عليك. لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكير، وما الفكرة ؟ أى شيء أبعد عن الوجود الحقيقى من فكرة ؟». وكنت على وشك أن أدع هذا الخاطر يهددنى، عندما انبعثت ذكرى مختلسة كأنها فأر يعبر غرفة مسكونة، ذكرى أذننى رجل ضخيم طيب، يبدو للمرء أن يضع عليها أصبعه ... وينتهى المرء بأن يضع عليها إصبعه .

لا شيء يمكن أن أفعله ! أشعلت لفيفة وتمددت تمداً، وذراعى تتأرجحان، وساقاى منطرحتان، وصدرى مكشوف .. حيوان معروض لكلب صيد. حقل قمح مبذول للجراد. جيفة منبوذة للغربان : ساحة عامة. فرج هلوك. أقبلوا ! أقبلوا ولا تخجلوا ! افعلوا ما بدا لكم ! فماذا أنا - هناك؟ وأين أنا - هناك؟

كان الليل قد مضى أكبر شطريه حين نهضت، فذهبت إلى

حجرة الطعام. وعلى أن المصباح كان مظللاً فقد جعل أجفاني
تطرف. وجلست إلى المائدة .

وكانت مرجريت تصفُ الصدريات في قطعة من النسيج
القطنى الرقيق الأسود ولرجريت وجه جميل ممتلئ قليلاً،
وعينان حنونان كأن فيهما شيئاً من الوجل، عينان بعث فيهما
عمل الليل بعض الاحمرار.

جمعت أمى الدبابيس وكرات الخيط. وكنت قد التقطت
كشتبانها، وأخذت أعبت به وأنا شارد اللب، وكان ساخناً تنبعث
منه رائحة خفيفة من العرق والهواء المحبوس .

قالت أمى وهى تشد أصابعها لتريحها :

- إنى راضية، فقد أنجزنا عملاً كثيراً !

واختلط فى هدوء الليل العميق شذا القهوة بنفح الصوف
الحار، المنبعث من قطع النسيج. وكانت الغرفة الصغيرة يسودها
هدوء كثيف، شبه هلامى، يكتم الأصوات .

وكان المصباح يبدو منهوكاً، وشعلته تنام وهى واقفة .

قبلت مرجريت أمى، وتمنت لى ليلة طيبة وخرجت .

- ينبغى أن تنام الآن يا بنى .

فأمسكت إحدى يديها بين يدي. كان جلد سبابتها جاسياً

ثقبه وخز الإبرة. ومسحت أُمى بيدها الأخرى على جبينى مرات كثيرة، فوجدت هذه اليد غضة. ولم أقل شيئاً ... كنت أسمع صوتاً كأنه صادر من أعماق غار، صوت قلبين يدقان .

(٧)

كنت ما أزال نائماً فى صبيحة اليوم التالى، وأنا فريسة
للخدر، حين سمعت همساً فى الغرفة المجاورة. كانت أمى تقول:
- هو ذاك. هو ذاك يا مرجريت. أحضرى إلى عددًا منها كل
يوم، مثل عدد الأمس تقريباً، ونجلس فى غرفة الطعام كأمس،
فهو أروح .

كنت قد نهضت، وذهب عنى النعاس، فتناهيتنى الهموم كائى
إجاصة تالفة ازدحمت عليها الزنابير .

فاغتسلت مسرعاً، وأفطرت، وأنا أستشعر العزيمة، بغير أن
أدرى ماذا عزمت عليه. لم تعد خططى تشبه ساكنات القواقع،
فقد تكون فى باطنها شىء عظمى صلب، يشبه العمود الفقرى .
- ارتد معطفك يالويس !

فليكن ! فليكن! المعطف، فالباب، فالسلم، فالشارع .
كان الصباح مضرباً دامعاً. والضباب ينتج قطرات كبيرة

صافية على سطوح الأشياء، والرجال يسرون سراعاً لا يلوون
على شيء، شأن من يعلمون أين هم ذاهبون .

وجدت نفسى قرب الساعة الثامنة إلا ربعاً فى ميدان هوبير.
وكان كشك الصحف مفتوحاً، ولكن صحيفة الإعلان لم تكن
وضعت بعد، فجعلت أدير بين أصابعى لفيفة نحيلة، لأظل مالكا
زمام نفسى، ثم انتظرت مع الآخرين .

كنا خمسة هناك أو ستة نمشى ذهاباً وجيئةً وأيدينا فى
جيوبنا، ونتسارق النظر. ويدا لى أن بيننا نوعاً من القربى،
قربى الفقر والقلق والذلة، كما خيل إلى أننا نتقارض شيئاً من
التحدى .

وفى الساعة الثامنة عرضت صاحبة الكشك اللوح الذى بينت
عليه طلبات الوظائف. وكنت قد أرشدت من قبل إلى هذه الوكالة
المقامة فى الهواء الطلق، ولكنى لم أجرو - حتى ذلك الحين -
على الالتجاء إليها . فتقدمت خلف الآخرين، وأنا أتصنع نوعاً من
الشroud .

لم يكن من السهل قراءة الكلام المطبوع بالغراء على الورقة
المبتلة. وكان بعض الرجال يتهجون الكلمات بصعوبة، وفى
صوت مرتفع، وهم يمضغونها، إن صح هذا التعبير. فقد كانت

أرواحهم تتشرب هذه الكلمات ببطء .

واجتذب الإعلان الثانى عشر اهتمامى : «محام يطلب
شخصاً مثقفاً شاباً حسن التعليم، عازباً، للأعمال المكتبية.
يرسل الرسم الفوتوغرافى».

وتراعى لى مكتب قليل الضوء. وبساط مخملى مفروش على
أرضه، ونار متأججة، نار حمراء قانية تشتعل فى جوف المدفأة،
وأصائل من الوحدة الطويلة، وشهقات خطار فى الصمت الكثيف
الليل.

هذا عين ما ينبغى لى .

قالت لى صاحبة الكشك وهى تناولنى الظرف الذى يحتوى
على عنوان رقم «١٢» :

– هذا بخمسة وعشرين سنتيما .

وحررت – فى مكتب بريد – كتاباً رقيقاً، يجمع بين الكرامة
والاستمالة، وبين الحزم والإقناع. وقد أزعجتى كلمتا «شخص
مثقف»، ولكنى فكرت أن لى إجازتى العلمية على كل حال،
وتناولت من حافظتى الرسم الوحيد الذى كنت أملكه، وهو رسم
مضى عليه ربح من الزمن، أبدوفيه مزرقن الشعر، طرير
الشارب، على وجهى سيماء الكآبة والخجل الذى ينطبع على

السحنة بين العشرين والخامسة والعشرين. رسم ؟ لماذا طلب
الرسم ؟ أفى الدنيا مثل هذا الجنون ؟

وما إن رحل الخطاب حتى شعرت بالاطمئنان والرضا.
وتراعى لى النجّاح مصادفة من تلك المصادفات السعيدة التى
تحول مصائر الرجال منذ تلك اللحظة كان لى مستقبل.
المستقبل ! أليست هذه فكرة تطراً فجأة فتكفى لتغير طعم
الدنيا؟

قلت لك إن الجو كان شديد الرطوبة. فأمضيت بقية نهارى
فى مكتبة سانت جنفريف، بركنى المحبب عند الطرف الأيسر
لمنضدة فى المؤخرة .

هناك يطيب لى العيش. فالنوافذ العالية ينزل منها ضوء
صاف روحانى يغنى على الصفحات المطبوعة كما يغنى قوس
على وتر. كل شىء هناك بقدر واعتدال، كأنه فى رأس حكيم،
وبخور الأحجار والكتب ينفذ إلى الروح ويطهرها.

أمضيت ذلك النهار كله فى المكتبة، وعدت إليها فى اليوم
التالى، فقد كنت أنتظر .. ما جدوى تكرار المحاولة ؟ أليست ترى
ذلك معى ؟ إن محاولة واحدة حسنة محكمة التنفيذ

حين عدت إلى المنزل فى مساء اليوم الثانى، سلمت إلى

البوابة خطابا. أرد سريع هكذا ؟ صعدت مسرعاً إلى الطبقة الثانية، حيث يخفق مصباح الغاز فى مسرى الهواء .

وجلست على درجة من درجات السلم، نحتت حافتها وأكلتها أجيال كثيرة من السكان. وكدت أفض الظرف، وإذا بى أستاذ لتسرعى وفرضت على نفسى - وأفلحت فيما فرضت - ألا أقرأ هذا الخطاب إلا فى حجرتى بعد وقت، وقد هدأت وسكنت لقد كانت يداى ترتجفان، ولا يفتح المرء باب حظه الجديد بيدين ترتجفان .

وصعدت الطبقتين الباقيتين فى اتران غير قليل. وكانت أُمى ومرجريت تعملان فى حجرة الطعام، فتمهلت حتى حييتهما تحية المساء، وخلعت معطفى، وأشعلت مصباحاً، ودخلت حجرتى. وأغلقت الباب. ووضعت الخطاب على المنضدة، لقد آن أن أفض هذا الخطاب وأعلم. كلا ! لما يؤن ! خلعت حذائى، فأنا لا أظل ألبتة لابساً حذائى حين أكون فى منزلى ... فى جحرى ... فى كهفى، ولبست كوئى الباليين، ثم أشعلت لفيفة، وكنت أخزر عينى بين الحين والحين لأنظر إلى ذلك الخطاب الراقد هناك كأنه شىء لا وزن له، وهو الذى يحتوى على المستقبل نفسه .. مستقبلى. انتظرت ثم انتظرت، ولما تحقق عندى أنى أستطيع الانتظار،

عرانى شىء من الزهو، فبدأت أصبح فخوراً بنفسى، وبدأت أرى
فى أخلاقى رأيا كريما .

على أن هذا الرأى لم يتسع له الوقت ليثبت، إذ انقضت
على الخطاب، ولاحظت وأنا أفضه أن يدى ترتعشان، وهو ما
أردت جاهداً أن أتجنبه. كانتا ترتعشان ارتعاشاً شديداً حتى
كدت أمزق الظرف وما حواه .

ماحواه ؟ لقد عرفت رسمى أول الأمر، ثم خطى، خطابى،
وبعرض الصفحة هذه الكلمات مكتوبة بالقلم الأزرق : «المطلوب
سكرتيرة. يرد الخطاب والرسم إلى هذا الشاب» .

لقد مرنت على احتمال الخيبة، ولكن خيبة هذه المرة ملأتنى
فجأة بخزى غريب، جعلنى أخس أنى أحمر وأكاد أبكى.
واسترجعت لتوى نص هذا الإعلان الغريب عن الوظيفة :
«شخصاً شاباً ... حسن التعليم عازباً ... يرسل الرسم
الفوتوغرافى» كيف استطعت ألا أفهم ؟ كيف استطعت أن
أخطئ هذه النقطة ؟ وقد أرسلت رسمى !

أنا ! ماذا كان يمكن أن يظن بى ؟

قرأت خطابى ثانية. وبدت لى الكلمات التى رأيتها أمس الأول
جلية واضحة - بدت لى فى هذه المرة مفتوحة لكل الريب.

وصعدت إلى وجهى دفعات أخرى من الحمرة. رياه ! كيف كنت
غيباً، غيباً، غيباً ! ... وهزأة ... نعم، هزأة !

وأمام عيني الجدار مستقيماً أملس كعهدي به. لا شيء يمكن
أن أفعله. أف لهذا القلب المتردد المتخاذل ! ما أقل أسباب
الاحترام عندي، وما أقطع هذا السيل من القبائح الذي يخرق
روحي ! هذه الحرب ! وهذه الهزيمة !
نادت أمي فجأة :

— لويس؛ تعال يا ولدي لتتغدى .

أكان ينبغي لي أن أشكو ؟ أكنت أجروء على الشكوى ؟ ألم
تكن لي أمي ؟ ألم يكن لدى ما أتعشى به ؟ ألم تكن لي هذه
الحجرة الصغيرة. هذا المأوى المغيّب الخفي كأنه صدفة ؟ أه ؟
إن الحزن لا يدرى أنه سعيد !

وإذا كانت أدوات الخياطة تزحم حجرة الطعام تعشينا في
المطبخ. وكانت مرجريت قد بدأت تتعشى معنا منذ أمس لتوفر
الوقت، ودبرت ذلك مع أمي. فلندع الحديث عن مرجريت إن كنت
لا ترى بذلك بأساً .

كانت جالسة عند أحد طرفي المائدة، وكنت أشغل الطرف
الآخر، وعن يساري البالوعة وعن يميني خزانة الخشب الأبيض،

فكان ذلك المكان هو مكانى الحق فى الحياة. وكانت أمى بيننا، وكانت تتلفت بين أونة وأخرى لتتظر شيئاً ينضج على موقد الغاز.

تابعت المرأتان حديث نهارهما، ذلك الحديث الذى لا ينتهى كعملهما، وكان هذا الحوار أشبه شىء بحديث النفس، إذ كانت مرجريت وأمى جد متشابهتين. أوه ! لست أعنى التشابه الجسمى، بل التشابه القلبى، التشابه فى طرق احتمال الحياة .
وقلما كنت أتكلم، وقلما كنت أستمع. ولكن كلمة واحدة - كلمة الشقاء - كانت تتردد بلا انقطاع فى كلام المرأتين. فتعلقت بها روحى العابرة، وفتحت فمى وقلت شيئاً ككل ما يقال. قلت ما يقرب من هذا :

- الشقاء، الشقاء ! يجب ألا يدوم الشقاء طويلاً، فلعله إن دام طويلاً أن يبقى إلى الأبد .

وكانت أمى ترفع إلى فمها ملعقة حساء، فأعادتها إلى صحفتها، وهزت رأسها بغير أن تنظر إلى، وقالت بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها :

- وى ! إنه فيما يقول أشبه بأبيه، أجل إنه أشبه بأبيه .
آه ! لا لا ! فلأعترف بأن عندى دواعى لليأس ! فلأعترف

بذلك الآن ما دام لأبى دخل فى الأمر، فلأعترف بأن لدى ما يدفعنى إلى الجنون، ما دام أبى الذى لا أعرفه يدخل فى، وما دام غيره من الناس الذين لا أعرف عنهم شيئاً يدخلون فى .
إننى لا أستطيع أن أجد نفسى. وإذا كنت لأبد باحثاً عن نفسى
وسط حشد لجب فلأرجعن عن هذه المحاولة ! فلأرجعن عن هذه
المحاولة !

وغنى عن البيان أنى فكرت فى هذه الأشياء كلها بغير أن
أنطق بكلمة واحدة .

على أن بعض أفكارى ظهر - ولا بد - على صفحة وجهى،
لأنى حين رفعت عينى لاقيت عينى مرجريت، وكانتا تفيضان
عتاباً، كما خيل إلى أنهما تفيضان عطفاً، فأمسكت لتوى، أعنى
أننى أمسكت عما كنت فيه من تفكير، أمسكت عن التدحرج فوق
منحدرى .

لو أن الأرض التى تسبح منعزلة فى الفراغ التقت فجأة
بأفكار عالم آخر، لملكته ولا شك دهشة كدهشتى ذلك المساء .

* * *

عدت إلى التطواف على مقربة من كشك ميدان موبير فى
صبيحة اليوم التالى قبيل الساعة الثامنة. والحق أنى كنت جزعاً

أشد الجزع، فكان جل مرادى أن أصنع شيئاً ما، أن ألقى
بعظمة إلى ضميرى القلق. أجل ... أن أصنع شيئاً ما ! أيا ما
كان هذا الشيء ! فذلك خير من هذا التأمل الباطنى الدائم .

وظهرت صفحة الإعلان، فأمررت عليها نظرة حزينة. وأخذ
الرجال الذين كانوا يحلون طلاسماها مثلى ينسلون واحداً
واحداً. وسرعان ما بقيت أنا وحدى. لا، لم أكن وحدى. فقد بدأ
شخص ورائى يتكلم، وكان ألثغ ينطق الجيم زائاً، وكان صوته
مريضاً منخوباً. قال :

– كل هذا معروف ! ليس فى هذا الإعلان كله شيء واحد
يجتذب العين. إن مكاتب باريس كلها لا تشتغل منذ ثلاثة
أسابيع إلا بخدع بالية .

أنا ذاهب إلى شارع هال .

إننى قليل الإقبال على التحدث مع من ألقاهم فى الطريق.
ولهذا تظاهرت بأنى لم أسمع ذلك الصوت الذى كان يهمس فى
أذنى، وتشاغلت بقراءة الإعلان واجتنبت أن ألتفت .
فعاد الصوت يقول :

– ألا تأتى إلى شارع هال ؟

وكانت فى كلماته نبرة مستعطفة حية حزينة جعلتنى ألتفت .

ولعلك تعرف هذا الرجل، فهو كثير التجوال فى حيننا، وإنى لأذكر أنى رأيته يتسكع فى الممرات الصغيرة بالبانثيون .
إنه متوسط القامة، طويل الجذع، قصير الساقين، فى نحول الحيوانات الهزيلة وعلى عينه اليمنى غشاوة كبيرة زرقاء، وأهدابه متلاصقة، وأجفانه سمراء كالفاكهة المعطوبة، وله شعر لا لون له يوصف، ولا يتفق مع أى ضرب من ضروب النجاح فى المجتمع، وشارب متهدل أصهب أشعث، ولحية بنت أربعة أيام، ولا ترى قط إلا بنت أربعة أيام، ويقع لا تحصي أشبه بالنخالة على جلد بلون لباب الخبز، وياقة منشاة منفصلة، ذات بياض لا تستريح إليه النفس، ويدان شعراوان مقروضتا الأظافر، ورداء طويل ينبغى أن يكون سترة مذيبة، ولكنه ليس إلا سترة وحسب، وحذاء بال فتقه ضغط حساً متناظرة، وقبعة مستديرة مهيضة غير أنها نظيفة، وتحت ذراعه حافظة من القماش الذى يشبه الجلد .

بدا عليه التردد. وقال مرة أخرى فى شىء من اليأس :

– تعال معى إلى شارع هال .

فسأله أخيراً :

– ماذا فى شارع هال ؟

- ماذا ؟ ألم تذهب إليه قط ؟ ألا تعرف مكتب باروان لنسخ
الجزازات ؟

فهزئت رأسى دهشاً، فقد كنت لا أعرف باروان .
فقال لى رقيقى الغريب فى نبرة مستعطفة :

- تعال معى إلى شارع هال، تعال ! لست مقيداً بشيء، فإذا
لم يعجبك العمل فأنت حر تنصرف فى أى وقت تشاء، أو لا تعود
ثانية. إنى لأعجب لك إذ لا تعرف مكتب باروان، فإنك ضامن
هناك أن تحصل على فرنك وربع فرنك، أو فرنك ونصف فرنك
إذا أسرع فى الكتابة .

ونظر إلى بعينه الوحيدة فى إلحاح وجل، وأردف :
- أنت من موظفى المكاتب .

حقاً إنى كنت من موظفى المكاتب، ولكنى شعرت بشيء من
الخرى، لأنى ما ظننت قط أن ذلك يبدو على . قال الرجل مرة
أخرى :

- لأبد أن لك خطأ جميلاً، وأنتك نشيط فى عملك، فيمكن أن
تعمل بفرنك ونصف. ولكن ينبغى أن نسرع لنجد مكاناً، فإن
مكتب باروان مكان قذر، ولكنه ملجأ نعمل إليه عند الحاجة .
«نعمد» ! شكت هذه الكلمة جنبى وأحدثت لى ألماً يسيراً.

أوه! لقد ذكرت لك أنى لست متكبراً، فلم أستغرب أن يقول هذا الرجل «نحن»، ولكنى شعرت أن «نحن» هذه تضمنى إلى رفقة تعيسة. وأردت أن أحس طعم «نحن» هذه فى فمى أنا، فأجبت بمرارة هادئة :

– لا شك أن وجود هذه الأماكن خير «لنا» .

وأسلمت له قيادى. فعاود الرجل الكلام بطلاقة أهل العزلة الذين يظنون أنهم وفقوا آخر الأمر إلى أذن كريمة :

– أما أنا فسكرتير، أعنى أننى كنت سكرتيرا. ولكن الوظائف الآن معدومة، واسمى لويليه، وأنى لأذكر لك هذا الاسم من فورى، وإن كنت لا أذكره عادة، فقد سبب لى بعض المكاره، إننى أبحث عن وظيفة أستطيع فيها أن أشتغل لنفسى قليلاً، وهذا أمر جد عسير، فباريس ليست واسعة كما يظن .

كان يمشى بجانبى، وكنت أسمع زحيه بين الجمل، زحير من أدنفه التهاب شعبى مزمن، وكان يسعل ويبصق بلا انقطاع.

قال لى وهو يمد يده بلفيفة تبغ :

– أتحب أن تدخن لفيقة ؟

وبينما كنا ندخن لفيفتين ابترسم ابترسامة ضعيفة :

– هذا من تبغ مويير، فزيميلى فى النوم يجمع أعقاب

اللفائف، وهو يعمل فى مصنع «جرو» الذى بالزقاق. إنه تبغ مخلوط ولاشك، ولكنه لا بأس به على العموم، وهو لطيف هادئ، ولعل سبب ذلك أن جزءاً منه قد غسلته الأمطار، لقد رأيت أكواماً من التبغ عدة مرات فى مصنع «جرو» : متراً مكعباً على الأقل فى ركن الحجرة. ليت شعرى كم يلزم من أعقاب اللفائف لعمل هذا التل؟! هيه ! إنه تبغ على كل حال. وهو زهيد الثمن كما تعلم .

كنت أدخن لفيفتى فى نوع من الرعب : إن قسوة الشقاء هى فى تعلمه، ولم أكن فيه إلا ناشئاً، فكنت أنظر إلى رفيقى بين لحظة وأخرى وأفكر : «وى ! وى ! بعد عشر سنوات أصبح مثل هذا».

وكان الرجل يكرح بجانبى ولا يكف عن الكلام، وكانت فى صوته رنات طفلية حنون، مرجعها بلا شك إلى لثغته. وكان يكثر من النظر إلى، وكان - لقصره - يستشرف ليرانى، فتلمع العين الوحيدة لمعاناً مضباً ضارعاً يعصر قلبى .

بلغنا شارع هال، حيث المنازل جميعها كأنها أشربت رائحة قذرة من كرنب عطن، ووقف زميلى أمام باب كبير. قال :
- سأذك على الطريق، أنت لم تأت قط .

وكان هناك فناء مزدحم بعربات اليد، والصناديق، وبأشياء
أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، ثم سلم أسود كريحه الرائحة
حتى ليبدو كأنه شق فى كتلة من القانورات .
ولما وصلنا إلى الطبقة الأولى كان رفيقى يلهث. وأمسك بأكرة
الباب .

- هنا . لندخل مسرعين. وحذار من الضجة حتى لا يثور بنا
الثقل .

ودخلنا. فتخيل قاعة كبيرة تنيرها ثلاث نوافذ ذات ألواح
كدرية عليها آثار كآثار الدموع. حجرة درس، ولكنها لتلاميذ
مسنين، لأشباح تلاميذ يستندون الإشفاق.

وتخيل أن فصلاً من صفار الأطفال نزلت بهم خمس عشرة
سنة من الشقاء والمرض والحرمان والكروب، تخيلها نزلت بهم
فجأة وكأنها عاصفة، فذلك يكون مكتب باروان وقت العمل .

وصمت كدر، يتألف من همس مكتوم، وسعال، وأنفاس
مبهورة، وأصوات أحذية تحك بالأرض الرطبة .

والجدران المصنة لا يعلوها إلا قطرات الماء التى نتجت من
تكاثف كل الأنفاس .

وعلى الكرسي المرتفع - فهناك كرسي مرتفع - شئ شبيه

بضابط صف ... رجل طيب كله شارب أشهب وعنق وفك، ولا
جبين له، فشعره فى حاجبيه. وبين هذا الشعر كله عينان
داميتان حاميتان. جذوتان فى أرض معشبة .

قال لى زميلى :

- أسرع ! أسرع ! ثمة مكانان، هنالك قرب النافذة .
فجلسنا جنباً لجنب على طرف «دكة»، وفتح لويليه حافظته
القماشية وأخرج منها قلمين .

- خذ هذا لك. واذهب الآن إلى الثقيل لتطلب منه جازات.
وكان الثقيل هو هذا الشيء الشبيه بضابط الصف،
والمستوى على عرشه فى طرف القاعة. أسلمنى سجلاً صغيراً
واضبارة من الجازات البيضاء. فقال لى لويليه :

- ما عليك إلا أن تنسخ كل العناوين التى بالسجل فى
الجازات هُكم! وهلممت .. ولم أك فاهماً كل الفهم ما حدث لى،
ولا ما كنت أعمله فى ذلك المكان. كنت أعمل جامداً مذهولاً،
وكنت أشعر برغبة قوية فى أن أهرب، وأخلو إلى نفسى فى
شارع مقفر. ولكنى قاومت هذه الرغبة، وفكرت وأنا أصر
بأسنانى : «لا ! لا ! أنت هنا، وستبقى هنا . ماذا ؟ إن هذا بدء
الانحطاط. إنما هو أول جرعة من الكأس. تجرع ! تجرع!»

وعنيت على الخصوص بالأدع لشيء من مشاعري سبيلا إلى
الظهور، وبالأبدو دهشاً لأي شيء، أو مرتاعاً من أي شيء.
وعلى كل حال فإن مجرى تأملاتي لم يمنع أصابعي من الحركة،
فكنت أنسخ وأنسخ، وأكوم الجزازات المكتوبة إلى يميني، حذاء
إضبارة الجزازات البيضاء .

وربما توقفت لحظة ورفعت عيني بغير أن أجرؤ على رفع
رأسي، وكانت رائحة الرجال تتحرك وتضطفّق بين المناضد،
وكأنها روائح مستتقع تجوس فيه السوائم. ولعلك لم تلاحظ أن
رائحة الإنسان هي ملكة الروائح الطبيعية النتنّة ... أليست هذه
أيضاً سمة من سمات الملكية ؟ وكانت الرائحة التي تنشقناها
هناك أشبه بمركب من روائح أخرى كثيرة : من رائحة المدرسة
ورائحة المعسكر ورائحة الملجأ ورائحة المستشفى. ولا شك أنه
كان فيها من رائحة السجن أيضاً، على أنني لا خبرة لي بذلك .
قلت لنفسي : «إذن فهذه هي رائحتي. أبداً لن أتخلص من
تلك الرائحة».

وكان ضابط الصف يشير من آن لآخر إلى شيخ ضئيل،
حليق اللحية، حليق الرأس، كأنه قسيس. وكان يعمل في الصف
الأول. فكان الشيخ الضئيل ينهض من فوره في مبادرة الخادم

ويدس نملء مجرفة من الفحم الحجري فى تنور صغير يعلوه
مرجل .

ظللت لابساً معطفي حتى أخفى سترتى التى كانت نظافتها
تخلبنى، وكان لويلييه يعمل عن يسارى، وكانت حركاته مثل
كلامه، ثرثارة مرتجفة لا حذق فيها، وأطراف أصابعه تبرز منها
زوائد جلدية ملتهبة، يقرضها بين أونة وأخرى، أو يجذبها
بأطراف أسنانه، واستنتجت أن عينه الوحيدة مصابة بقصر نظر
شديد، لأنه كان يقرب الكتابة من عينيه تقريباً، فيكنس شاربه
المنضدة بحركة نشيطة رتيبة، وكان يعتدل فى أوقات معينة
ليبصق بين ساقيه، فيرانى ويبسم لى بسمة كبسمة الطفل، فيها
من الطهر والحنو ما يجعل الدفء يعود إلى قلبى، فأتابع عملى
وأنا أسائل نفسى كيف تسنى لمثل هذه البسمة أن تزدهر فى
مثل هذا المكان .

وحدث عند الظهر شىء من الاضطراب، بين المجتمعين.
فخرج الشيخ الضئيل الذى يجلس فى الصف الأول، وسرعان ما
عاد إلى «ضابط الصف» بقطعة من الخبز وشريحة فى وعاء
معذنى مغطى بصحفة مقلوبة .

وأزاح أكثر الرجال أضابيرهم إلى طرف المنضدة وشرعوا

يأكلون وسرت بين الموائد رائحة الخبز والسجق، وتبعثها ضجة الحديث .

وخرج بعض الرجال، ومن كان منهم خارجاً إلى غير عودة سلم أضابيره إلى الثقيل، وسوى حسابه، وسمعت خشخشة الفلوس، يتخللها أحياناً رنين رقيق لنقد فضى صغير .

وظهرت وجوه جديدة، ولم تبق شاغرة إلا أماكن قليلة، ومن ذهب من الرجال حل غيره محله. وكان جلياً أنهم جميعاً يعرفون ناموس الدار، وكان هناك نوع من النظام المركب من نظام المدرسة ونظام المعسكر ونظام المستشفى ونظام السجن .

ورد لوييليه الدكة إلى الخلف ووقف على ساقيه القصيرتين. قال :

إنى ذاهب لأحضر طعامى. فإذا شئت أحضرت لك طعامك. بم تفضل أن تأتدم مع خبز بفلسين ؟ أتريد شواء بثلاثة أفلس أم سميكات بثلاثة أفلس ؟

فأجبت :

– أفضل الشواء .

وظل لوييليه شاخصاً أمامى. وابتسم مرة أخرى وقال وهبى

يميل إلى الأمام :

- أعطنى خمسة الأفلس إن لم تر فى ذلك بأساً .

وأتم وهو يبتسم ابتسامة هزيلة :

- معذرة، فأنا اليوم لا أستطيع النسيئة .

وبينما كنت أعطيه الأفلس الخمسة وأنا أتمتم ببعض كلمات الاعتذار، همس فى أذنى بصوت كالصغير :

- معى قارورة للماء ... أرجوك أنصح لك ألا تتكلم كثيراً مع ذلك الرجل الذى يجلس على طرف الدكة، فهو رجل غير وقور، وأنا أعرفه، لأنه يسكن فى الزقاق. إنه ليس على شاكلتنا، وهو لا يأتى إلا فى الأيام المطيرة، أما فى الأيام الأخرى فهو يبيع السيور بلا ترخيص. حسنا ! احرس أشياءى. سأعود.

لم تكن تساورنى أقل رغبة فى الحديث مع من يحيطون بى من الناس. بل إنى لم أكن لأجرؤ على النظر فى وجوههم. فتابعت الكتابة حتى حضر لويليه، وأكلنا. قال لى رفيقى :

- إن الشواء طيب، ولكن السمك الصغير أكثر صموداً فى الجسم. أنا أفضل السمك الصغير .

ومر العصر كما مر الصباح، أعنى أنه مر ببطء شديد مئس. وكانت فى الفناء مبولة، ذهبى إليها عدة مرات، وكنت فى واء أشعر لسماع ضوضاء الشارع برغبة شديدة فى أن

أهرب وأدع كل شيء حيث هو : الإضبارة والثقيل وقبعتي التي تركتها على المتضدة، فتمنعني ذكرى لويليه وتردني في كل مرة. ولما كانت الساعة الرابعة ونزلت الظلمة من على الجدران كنسيج العنكبوت الترب، أضيئت ثلاثة مصابيح غازية. فكانت شعلاتها القلقة تتنزي في زجاجاتها، وهي تحشرج حشرجة ضعيفة وتعطس وتختنق. وكان رأس لويليه المائل يلقي على المتضدة ظلاً مستديراً أسود، يجاهد فيه قلمه ويتعثر ويجمجم . ولعل الساعة كانت السابعة إلا ربعاً حين قال لي لويليه فجأة:

— ها قد فرغت ! سأساعدك .

وأمسك لتوه ببعض جزازاتي وعاونني. وكان يكتب بنشاط محموم، وعيناه تارة على قلمه وتارة على السجل المفتوح بيننا. وكانت تجف على أصابعه الملتوية بقع كبيرة من الحبر . ورتب عملي كما كان رتب عمله. فجعل أضاير الجزازات متصالبة بعضها فوق بعض، ومصنفة أصنافاً مبهمة . عدّ لي «ضابط الصف» أربعة وعشرين فلساً، وبلغ ما كسبه لويليه فرنكاً ونصفاً، فعراه لتفوقه على شيء من الارتباك، ورأى من واجبه أن يعتذر إليّ .

– حين تكتسب المراتبة ...

وانحدرنا ثانية فى شارع هال، وكان رذاذ دقيق يغطى أرض
الشارع المغبرة، فكأنه دهنها بغراء، ويثير رائحة الخضر
الفاسدة التى هى فى الحقيقة أنفاس ذلك الحى .

وأخرج لويليه صندوق تبغه .

– لفيفة ؟

فأحسست أنى جبان جبان. ورفضت كاذباً :

– إنى قليل التدخين .

وكان رفيقى يسرع ليلحق بى. وكان فى مشيته شىء من
القفز وشىء من الزحف أيضاً، شىء من الضنى وشىء من
السذاجة. وكان يتكلم بلا انقطاع كشأنه فى الصباح. ولم أسمع
كل ما قاله، فإن ضجة الشارع وضجة أفكارى حجبتا عنى أكثر
حديثه. على أن كلمة واحدة – كلمة «المستقبل» – كانت تطفو
وسط جملة المضطربة، وكأنها فلينة فى زبد شلال . قال لى
لويليه :

– أنا الآن أنام فى «عنبر» بفندق الزقاق ولست أحب

«العنبر».

فأنا لا أستطيع أن أشتغل فيه بشغل يخصنى. ولكنى

سأستأجر حجرة صغيرة إذا وفقت إلى وظيفة. فإن لدى أشياء كثيرة أريد أن أعملها .

وجعل يحدثنى عن مشروعاته حتى وصلنا إلى مدخل زقاق موبير .

وكانت تغمر الزقاق ظلمة كظلمة المياه فى أغوار البحر، وكان يهتز فى أقصاه مصباح، تقرأ على زجاجه الذى ذهب طلاؤه كلمة «فندق» .

وقف لويلييه، وجعل يدب وهو يتكلم، وكنت أسمع نعليه تمتصان الوحل وتمجانه على التعاقب. غمغم فجأة وهو يأخذ بيدي :

- قل لى. قل لى. أتأتى إلى شارع هال ؟ أتأتى معى ؟

وأردف بصوت خفيض متوجع متغير :

- إنى أشعر بوحشة شديدة .

وأحسست ارتجاف يده الندية البطن الشعراء الظهر وهى بين أصابعى. فوعده أن أعود، بل وعده أن أعود من غدى. ونظرت ملياً إلى لويلييه، وكان يغشيه على فترات متقطعة ضوء مصباح من مصابيح الشارع. ثم ذهب. وأتبعنى بصره حتى انعطفت عند زاوية الشارع .

صعدت - غير مسرع - فى شارع جبل سانت جنفييف.
وكان انحداره يحننى صوب الأرض، فأشعر أن نوعاً من الكآبة
التي تشبه الخوف يهزمنى ويهدمنى وينخرنى. وكدت لا أجرؤ
على العودة إلى منزلى. فقد خيل إلى أن ملابسى وجلدى وروحي
فيها ولا شك رائحة مكتب باروان. فجعلت أجتري فتات أفكار
غريبة : «أنا لم أخلق لأعاني هذا اللون من الشقاء». لقد كان لى
- ولا شك - لوني الخاص من الشقاء، لوني الذى اخترته
بنفسي، وعلى ذوقي !

ويجب أن أصارحك بأتنى قررت قراراً أكيداً وحشياً أن الموت
جوعاً خير من عودة إلى باروان .

أما لويلييه فيخجلنى أن أقول لك إنى مازلت ألقاه فى هذا
الحى، فما إن أراه من بعيد حتى أغير الطوار .. وأعلم أنه لن
يعرفنى، فنظره جد قصير ثم ... ثم إنى غير جدير بهذا الرجل .

كثيرا ما مرضت، وكان مرضى شديدا، ولكن أوقات النقه
تشفع للمرضى عندي، الحياة! الحياة! إنهم يضحكوننى بهذه
الكلمة، إنما السعادة فى العودة إلى الحياة، والحياة - ولا شك -
ليست سوى الإفلات من الموت، يخيل إلى أننى فى أيام نقاهتى
جربت الحياة.

وينبغى أن أقول لك إننى حين أجد نفسى فى بيتى، بل فى
أحضان أريكتى، بل فى مكمنى، يخالجنى إحساس كإحساس
الناقهين.

ما أزال أنا إياى، سلاقان، الرجل المسكين، ولكنى لست
الآن كما كنت طوال النهار لست دودة وخطاما وسؤرا.

كانت أمى ومرجريت تنتظرانى للعشاء، ولما وجدتنى فى
المطبخ الدافئ النظيف مرة أخرى لم أستطع أن أمنع نفسى
من تذوق طعم الرضى والراحة والاستسلام قالت لى أمى:
- ما أشد إعياك يالويس!

فلم أجب إلا بهزة غامضة من كتفى، وكنت منكس الرأس أعذ
بطرف شوكتى بعض حبات من اللوبيا متناثرة على أزهار
الصحفة الخزفية الملونة. وغنى عن البيان أن طعامنا كان فى

غاية من السذاجة، بيد أنه كان فيه طعم خاص لا يكون إلا فيما تطبّره الأمهات، طعم يستحيل على أن أصفه لك، ولكنى أستطيع تمييزه بين ألف من الطعوم ، كما أميز وجهها أعرفه بين ألف من الوجوه.

واستأنفت أمى قولها:

- إنك تضنى نفسك، ينبغى لك أن تشرب معنا الساعة قدحا من القهوة.

فوافقت مبتسما، إن أمى لا ترانى ألبتة رجلا ، فهى تتمم حين ترانى حزينا يائسا :

- هل لك فى قطعة صغيرة من الشيكولاتة؟

ولو كنت قائدا وخسرت معركة لقات لى أمى: «لا تبك يا ولدى لويس، فسأصنع لك شيئا من القشدة بالسكر المعقود». والغريب يا أخى أن قطعة الشكولاتة أو القشدة بالسكر المعقود يكون فيها عندئذ كل مزية تنسبها إليها المرأة المسكينة..

فلنعد عن هذا، ولأحدثك عن أمر شاذ، لقد كنت أستمع لحديث أمى اللطيف السلسال وأنا مكب على صحفتى، فأحسست أن قلما جديدا مبهما ينفذ إلى نفسى.

لقد ألفت أن أعيش تحت عين أمى، ألفت هذه النظرة التى تحيط بى، وتنفذ فى وتترلق على وجهى، وتضل فى شعرى ،

كأنها يد أو نفس.

لهذا لم أستطع أن أرفع رأسي ذلك المساء، لأنني أحسست
إحساسا جليا أن هذه النظرة لا تتبع وحدها ارتجاف يدي على
المشمع، ولا تعد وحدها قطيرات العرق التي تنتح على صدغي،
ولا تقرأ وحدها في قسّمات وجهي اضطراب قلبي.

أسرعت بطل منشفتي ودخلت حجرتي.

ولعلني لم أذكر لك من قبل أنني أوقع على الناي، ولا شك أنني
أبالغ حين أقول «إنني أوقع» فعندى ناي من الخشب ذو مفاتيح،
علمني أحد رفاق الجندية أن أضنع أصابعي عليه، ودرست
عامين في أوقات فراغي دراسة تكفي لقراءة الصفحات
المتوسطة الصعوبة، ثم انقطعت عن الدرس، وانقطع بذلك
استكمالي الفن، ولهذا تجدني أعزف عزفا رديئا، ولعلك حذرت
ذلك، فلو أنني أتقن شيئا من الأشياء، ما كنت هذا الرجل الذي
تراه.

والمؤلم أنني لنقص الدربة والدراية والدرس أوقع بطريقة
عاجزة صبيانية قطعاً أحسها إحساسا طيباً، إذ ينبغي أن أقول
- لأكون عادلاً في الحكم على نفسي - إنني مشغوف بالموسيقى،
وإنني أدين لها بأثبل مشاعري، ولكنني حين أجاهد ألتى يبدو علي
أنني لا أفهم شيئاً مما أعزفه، على حين أن أودين مثلاً - وهو

يصفر بالناى أيضا - أودين هذا الذى لا يفهم شيئا من الموسيقى، ولكن له أصابع عتمرنة، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان.

وخلصة القول إنى شرعت أنفخ فى الناي ذلك المساء، وبدأت بصفير خافت ثم صفرت ملء أنفاسى، فسمعت أسمى تقول:

- حسنا تفعل يا لويس! اصفر قليلا ، فقد بعد عهدك بالناى.
وكنت قد أضأت المصباح، ووضعت كراستى الموسيقية على الخزانة، مستندة إلى القارورة الزجاجية الزرقاء.

اجتهدت فى التوقيع وأنا أضغط شفتى بعناية وأضبط أنفاسى، اجتهدت فى أن أوقع أنغاما جميلة، فخيّل إلى أن جزءا من عذابى فر من تحت أصابعى، وذاب فى الجومع رنين الآلة، أدت القطع التى أعرفها أحسن معرفة، والتى ألفتها منذ عهد بعيد، والتي امتزجت بجميع أفكارى.

وسرعان ما لاحظت أن المرأتين قد عادتا تتكلمان فى الحجرة المجاورة بصوت خفيض، بعد أن صمتتا صمتا طويلا، فأحدث كلامهما غممة ضعيفة متصلة، لم أستطع أن أسمعها وأنا أوقع.

ومعلوم أنى عديم الموهبة، ولكننى استأثرت، وإن بدا لك هذا

الاستياء مضحكا ، لم أسخط على أمي ، بل سخطت على
الأخرى ، أجل ، سخطت على مرجريت ، لأنها لم تتذوق تلك
الأشياء الرائعة التي أوقعها هذا التوقيع الرديء ، والتي أوقعها -
على الرغم من ذلك - لأجلها هي .

وعزوت سخطى فى تلك اللحظة إلى العجز عن تقدير الفن
والفنانين ، على أنى يجب أن أعترف بأن كبريائى - بخاصة - قد
تفاعلت فى ذلك السخط ، كما تفاعلت فيه مشاعر أخرى غامضة
لم يحن الوقت للتحدث عنها ، ولكنى إذ أروى لك هذه التفاصيل
كلها فإنما أفعل ذلك لأثبت أن لدى أسبابا لا تحصى تجعلنى
عنيفا فى الحكم على نفسى .

وضعت نايبى ودخلت حجرة الطعام ، وجلست أولا تجاه
الموقدة ، ثم غيرت كرسى حتى لا أضطر إلى أن أتأمل فى المرأة
ذلك الوجه الذى يسوعنى كثيرا فى بعض الأحيان ، وجهى
المسكين .

وارتفعت المائدة وصدغاي بين راحتى ، ولبثت كذلك لحظات
طوالا ، أنظر إلى المرأتين وهما تعملان ، وتمتعت مرجريت
وعيناها لا تريمان عن عملها :

- ما أجمل ما وقعتة الليلة !

فابتسمت ابتسامة مغتصبة وقلت :

- أجل ، إنه جميل ، ولكن توقيعى جد ردىء!
قالت وهى ترعش أجفانها أمام المصباح لتسلك الخيط فى
الإبرة:

- أوه، كلا! ليس توقيعك رديئاً.

فشكرت لها هذه القطيرات من البلسم المسكوبة على
كبريائى ، وشكرت لها بخاصة نبرتها وهى تلفظها، إنها كانت
تستطيع - على كل حال - أن تسمع ما أوقعه وهى تجيب أمى
التي كانت تحترمها احتراماً عظيماً.

وكانت مرجريت تخطط بسرعة عظيمة، بغير أن تضل عينها أو
تجمع أصابعها ، ولا شك أن حرصها على الإسراع هو الذى
جعلها تتجنب التنفس من الأنف، فكانت تتنفس من فمها، وكثيراً
ما كانت تستنشق مخاطها فى غير شدة، ومن العجيب أن ذلك
لم يسؤنى، بل جعلت أنظر إلى أصابعها وهى تذهب وتجىء،
والى الظل الذى تلقىه على خدها خصلة شرود تلتوى أمام
أذنها.

وسرى فى فتور كسل دافىء، وارتدت أحداث اليوم ووجوهه
إلى ماض ملؤه التسامح: لويلييه، ومكتب باروان، وضابط
الصف ، والبائع الذى لا رخصة له.

وأويت إلى مضجعى قبل أن تقوم الحائكتان بوقت طويل،

وكانت أفكاري الأخيرة أفكارا مطمئنة، لم يضع شيء: أربعة أشهر في البطالة ليست بشيء، وما من رجل إلا حدث له ذلك مرة على الأقل، سيعود كل شيء إلى موضعه ، وستنسى أُمي هذه الفترة المحزنة ، ولن تسيء مرجريت الظن بي. ونمت على هذه الوسادة اللينة..

واستيقظت فجأة في جوف الليل وأنا أفكر في لويليه، لم أكن أحلم ، ولكن كل الأفكار التي خطرت ببالي كانت مصبوغة بتلك الصبغة الشاذة المشوهة المفزعة التي يضيفها تفكيرى الليلي على أهون الأشياء.

استرجعت كل ما قررتَه في المساء قرارا قرارا، فبدت لي جميعها خلوا من العقل وغدا الموقف مرة أخرى لا مخرج منه، فلما نهضت من الفراش في الصباح كنت أحس أنى أشد تعاسة وشقوة وإجراما مما كنت في أى وقت مضى.

على أن شيئا واحدا ظل ثابتا في تفكيرى: لن أعود إلى مكتب باروان . سأنتظر ، سأبحث في أمكنة أخرى، سأعيش فترة على عمل أُمي، ولكنى لن أعود إلى هذا المكتب.

واطمأنتت - وأنا أغمس قطعة من الخبز في القهوة - إلى هذه العقيدة الموثقة: «انظروا! أنت رجل بلا نخوة، وروح بلا قوام، وقلب بلا كبرياء! هكذا أنت!»

كنت أفكر هذه الأفكار ، كنت أفكر وحسب، وإن كان تفكيري
عنيفا، وإذا بشيء يصعب تصديقه، إذا بشيء يشدهني
ويفزعني، لقد قالت لي أمي فجأة بصوت مرتفع:
- لا لا ! يا ولدي لويس'

ماذا؟ لماذا « لا لا »؟ أؤكد لك أنني لم أزد على أن فكرت ، بل
أؤكد لك أنني لم أحرك شفتي.
وعندئذ أخذت أمي بيدي وجعلت تلاطفهما، وقالت لي قولا
طيبا حكيمًا:

- إنك تخنني نفسك بحثًا، هذه فترة عصبية ، انتظر حتى
تسبح فرصة ، لا شيء يعجلك، استرح واهدأ، زر أصدقاءك
وأؤكد لك أنني ما فتحت فمي، ولا بدرت مني أقل إشارة.
وكررت أمي وهي تقبل يدي:
- زر أصدقاءك

أصدقائي! ليس لي أصدقاء، نعم! إن لي صديقًا واحدًا، وهو
لانو، وليس «صديق واحد» كأصدقاء ، لقلب طموح.
ولي أقارب قليلون ، مبهمون ، بعداء، وأنت تعلم هذا النوع
من الأقارب الذين يكاد المرء يخاف حين يسمع الحديث عنهم ،
أه! لو كان لي أخ واحد ، أخ واحد طيب! ماذا! ولكنه ولم

يشبهني ما تفاهمنا، ولو أشبهني ما احترمته ، وبغد فمن العبث
أن أبتعث هذا الحلم، فليس لي أخ.

ولنعد إلى ذكر الأصدقاء، هناك أولئك الذين أميل إلى
إعزازهم ولا يستطيعون هم احتمالي، وهناك أولئك الذين يبحثون
عني راغبين ، ولكنني لا أطيق صحبتهم.

ولا تحسن أننى امرؤ طلق اللسان لأنى قد عزمت الليلة على
أن أقص عليك قصتى، بل أنا صموت، أو على الأقل أن الظاهر -
إذا كنت أحسن فهم ما يقال عني - هو أنى صموت، ولاحظ أنتى
أحتاط كل الحيلة حين أعبر لك عن أفكارى، فلا تظن أنى من
البلاهة بحيث أنسب إلى نفسى بعض الفضائل، على حين أنى لا
أحس إلا التقزز من نفسى.

ولماذا لا تعدنى على الحقيقة أبلاً؟ هذا أمر عسير التصديق:
فى عين اللحظة التى أتهم فيها نفسى تستعد كبريائى لتنفيذ
بضاعتها الحقيرة من الإفلاس، وكيف يكون المرء صادقاً أميناً
وله هذا اللسان الذى لم يجعل إلا ليخون قلوبنا؟

وبعد فليس من المحتم أن «كون المرء صموتاً» يدل على
فضيلة من الفضائل ، فالنساء اللائى يشوب جلودهن الكلف
يتعزين بقولهن: إنى رقيقة الإهاب، كذلك الرجال الذين هم على
شاكلى غفل من كل ذكاء وبديهة وتآلق يدارون عجزهم بقولهم

«إنى صموت» يعنون بذلك: إن لى عقلا رزينا جادا يقظا، أجل
إن لى عقلا عظيما.

والحق أنى بفضل هذه الخليقة فى، حسبت أبله فى كل بيئة
عشت فيها، ومن المحزن ألا يكون العباقرة بلهاء فى الوقت عينه،
فهؤلاء الذين سألتهم أن يتأملوا ويدرسوا بني جنسهم ينتقص
ذكاؤهم وشهرتهم من قيمة محاولاتهم، وأعتقد أنهم دون غيرهم
تمكنا من مفاجأة الطبيعة، فالأشخاص الذين هم موضوع
دراستهم يجمدون إذا اقتربوا منهم، ويتكلفون أوضاعا خاصة
كأنهم أمام رسام، ويحاولون أن يظهروا لأول وهلة بمظهر يعلى
قدرهم.

أما الأبله فلا جدوى من التكلف معه، وهل يستحيى المرء أن
يبدو عاريا أمام كلبه؟ لو فهمت الكلاب والبلهاء ما نتركهم يرونه
لوقد هم الحزن.

أما أنا الذى لا أمارس ملاحظة الناس، فأفضل أن أتجاهل
الشرف المر الذى يضيف على بمعاملتى معاملة شاهد لايؤبه له،
ولو كان على أن أختار بين الخبرة المشئومة التى أكتسبها كل
يوم على الرغم منى، وبين الكذب الخلاب الذى لا يعنى أحد
بتقديمه إلى - لو كان على أن أختار لاخترت الكذب من غير شك
، ولكنى - ويا للأسف! ليس لى أن أرغب.

فأودين جارى القديم في المكتب - وقد حدثك عنه من قبل
ببضع كلمات - فتى متوسط الذكاء، نورمندی فيه جفوة وحدة،
ونزق وعصبية، فهو من طراز خاص بينى جلادته، وله عينان
خضراوان تميلان إلى الزرقة ، تضحكان أونة وتجمدان كالثلج
أونة أخرى، كما أن له جوابا لكسعة السوط.

آه! هاك رجلاً كنت أود لو أحببته! ولكن لم هذه الحاجة إلى
التسلط ، ولم هذه الرغبة الشديدة التي تستحوذ عليه، في أن
يضع الناس عند كل مناسبة «في جيبه» بدلا من أن يحملهم
بطيبة في قلبه؟

إن كلامه أمر سريع، قاطع كلما أراد ، وهو لا يجيز المناقشة
إلا إذا كانت لتأييد رأيه، ولا يعرف تسامحا ولا حسنى، أف!
هذه أشياء كنت قمينا أن أغتفرها له، ولكن أبعد الأشياء عن
القبول ميله الظاهر إلى تغفل غيره، أي عاداته من المجازفة
ببلاهة رفيقة، فإن شعوره البديهي بغلبته على فى المجادلة
يجعله يستهين بقهرى ، فلا يكفيه أن يهزمنى بل يتعجل ذلك
ويريد أن يكون ثمة عليه هينا، وعباراته المصوغة في قوالب من
التأدب الغليظ، محملة بألوان من التعريض المهين والتلويح
الجارح يظننى عاجزا عن إدراكها ، وكذلك الأمر فى مكاتباته،
بل فى خلواته، فهو يمثل لنفسه إن أعوزه المشاهدون.

والغريب أنى أستسلم لهذه التجارب فى قنوط آثم، حتى حين
يستطيع أودين أن يشك - وحين يتحتم عليه أن يشك - فى
نجاح مناوراتى، فأنا حينئذ أستشعر سرورا شنيعا بأن أؤكد له
أنى أبله، وأن له أن يضاعف الجرعة، وأن يعيد الكرة أمنا من
العقاب، وأن يفوص بقدميه فى ثقتى واطمئنئانى، فلا يقصر فى
شئ من ذلك .

ولو أنى كنت أضعف بصيرة ما سلك أودين معى غير هذا
المسلك.

ولكنه كان من المستطاع أن يتاح لى صديق آخر، أو - إن
شئت - كان من المستطاع أن يتاح لى إنسان آخر أحبه،
لم أحدثك بشئ عن پويير، وجلى أنه موظف ببیت سوك
وسيرو، فحين يكون للحصن أصدقاء لا يكونون إلا من رفاق
القرن، وكذلك نحن: عسير علينا أن نعرف غير رفاق المكتب أو
المصنع، لأن حياتنا كلها تنقضى فى العادة هناك.

وپويير فتى من أهل الشمال ، نزلت به كل المصائب التى
تخطر على البال، فخانتة امرأته، وخانتة صحته، وخانتة أسرتة،
وخانتة شجاعته ، وغدا كانه إخصائى فى نكد الطالع، وإنى
لأجد من الطبيعى جدا أن يستشعر لذلك نوعا من الكبرياء، لكن
يشق على أن أفهم رغبته فى أن يجعلنى مسئولا عن شقائه،

وأعجب ما فى الأمر أنه يخاشننى أنا بخاصة، أنا الذى لا أكف عن إظهار عطفى الصادق عليه، والذى أسدى إليه بعض المعروف حين تسنح الفرصة.

وهناك دفرينى ، وهو باريسى قح، ثرثار، دموى، أحمر الشعر، أحمر المزاج، لم يعرف أحد أنه جد فى حديثه مرة واحدة، فهو لا يفكر إلا فى مضاجعة النساء، ولا ينظر إلى صيده ألبتة عن قرب، وليس دفرينى غبيا، ولكنه من أولئك الفتيان الذين لو خيروا بين صحبة فكتور هيجو وصحبة فريزبويو خادمة حانة ماركية، لفضل - بلا شك - صحبة الخادمة، على ما فيها من أمراض ، وأتوسل إليك ألا تظن أنى أقول هذا لأن دفرينى تركنى أكثر من مائة مرة ونحن مصطحبان ليتعقب بعض الخادومات الصغيرات اللاتي غشين على عقله، ولن يزلن به حتى يخمد، فلنعد عن هذا ! فإن هذا الرجل يتبع هواه، ويفعل ما بدا له.

وأستطيع أيضا أن أذكر لك فيتيه، وقد كان رفيقا لى فى الجيش، وكاد يصبح صديقى، وقد ألحق بى فيتيه أذى كثيرا، وأنا أقابله بانتظام منذ سبع سنوات ، أى منذ انقضت خدمتنا العسكرية، فهو موظف فى البريد، يسافر مرتين كل أسبوع بين

نيفير وباريس، فإذا اتفقت ساعات فراغنا جاء ليراني ، كلما بدا
له أن يعذب أحدا، أو أذهب أنا لأسأل عنه، إذا شعرت بحاجة
إلى العذاب، وهو أمر يحدث لي بين الحين والحين، كما يحدث
للناس جميعا، مهما يكن الرأي فيه.

ولفيتيه خلق لعين ولكنه مستو، إنه عنيف عنفا رزينا مستمرا،
فإذا عذبك حماس فياض ، أو حفزتك رغبات شداد، أو أثارتك
نيات طموح، فاذهب لتري فيتيه ، وإنى لأستكثر عليه عشر
دقائق حتي ينظف روحك ويظهر قلبك من كل أطماعك الخطوة ،
ويخلفك أشد عراء وفقرا وحرمانا مما كنت في أي وقت مضى.
ولو حضرتنى يوما من الأيام فكرة فيها من القوة والحرارة
مايجعلها تصمد لساعة من فيتيه ، ما بقى لثقتى بنفسى حد،
فيتيه !إنه محطم ! وسلاحه المفضل كلمة تبدو لا شأن لها،
ولكنها أقطع من مشرط، وأحد من حمة، فإذا استسلمت إلى
الرضا أو الأمل أو الحبور نظر إلى فيتيه لحظة بعينيه اللتين
يحيط بهما هذب أشقر، ولايزيد على أن يقول: «اجرا !» وإنى
لأسائل نفسى أحيانا ألم تفسد هذه الكلمة حياتى كلها؟

وعلى نقيض فيتيه لديو، وهو موظف كان يجاورنى فى عملى
الأول بيت موتيه، ليس لديو بغیضا دائما ولكن تنتابه نوبات،

فهو فى فتراتة الطيبة - التى تدوم أربعاً وعشرين ساعة أو ثمانى وأربعين ساعة - كله لطف وصفاء وبراءة وتسامح، ثم تحتجب السماء فجأة ويظلم كل شىء، ويغدو لديو كئيباً شكساً ضيق العطن، إنه روح بائس قلق، كتلك الأقطار التى تغمرها كل عام فيضانات مفاجئة، والتى تحاول فى كل فترة بين فيضانين أن تعمر ما تخرّب منها وتصلح ما فسد.

وإنى لأراه أحياناً خاشعاً متصدعاً فأذل نفسه أمامه حتى لا يبقى وحيداً فى تعاسته، وما إن أنل من نفسه وأسقطها حتى يستغل لديو ذلك ليتعالى على ويصعد فوق ظهري، ويركنى، فلا أنال منه إلا الإحناق والتحطيم والغدر، ولو أنى كنت خيراً مما أنا لكنت أقنع بهذه النتيجة ، وأرضى بأنى نقلت إليه شيئاً من دمي، ولكنى لست على شىء، وإنى لأسائل نفسه أليست نوبات تواضعى ناشئة هى الأخرى عن نوع من الغرور ؟

وبعد، فلديو لا يستطيع أن يحتمل وحده أتراحه ولا أفراحه ، فحين أراه قادماً إلى أنظر فى وجهه لأحاول أن أحس ما يفعم قلبه: أخيبة أم فوز؟ ومع ذلك فهو إذا كان سعيداً أسر إلى: «إننى وفقت فى هذا الأمر أو ذاك». أما إذا ارتكب حماقة أو غلبه ضعف أو صدر عن جبن، فهو يصيح بمرارة، «نحن أغبياء، نحن ضعفاء ، نحن جبناء» وى! أليس لدى من نفسه ما

يكفينى؟

وقد أستطيع أن أحدثك عن جاى، الذى تكاد صحبتته تقذنى ،
جاى الذى تجعلنى غيبته الهادئة أفر من جل من أعرفهم، جاى
الذى هو على الرغم من ذلك رجل طيب قدير على الولاء والحب.
وقد أستطيع أن أحدثك عن بتسر، الذى كان رفيق صباى،
والذى أفسدته على زيجة مضحكة ، وقد أستطيع أن أحدثك عن
كوى ، ولكن ما جدوى ذلك؟ لن أفلح إلا فى تأكيد رأيك السيئ
الذى كونه عنى منذ الآن، وعلى الرغم من كل شيء أؤكد لك أن
رغبتى الوحيدة هى أن أحب، وأن أحب حبا كاملا مطلقا، فهل
ذنبي أن عينى بصيرة؟ ومن ذلك الأحق الذى قال : إن الحب
أعمى؟.

ولعلك تعترض على بأن الناس ليسوا كلهم كلديو وجاى
وفيتيه ودفرينى، أه مهلا ! لست أدري فذلك مبلغ علمى، لقد كنت
أعرف فتى يدرس طب الأسنان ، صحبتنى يوما إلى مشرحته فى
«كلامار» - ولعلك تعرف شارع فير أمولان، وكان الطلاب جميعا
مصطفين حول مناضد من الإردواز يقطعون رؤوسا بشرية،
ليتعلموا تشريح الوجه والغالب ألا تقدم إليهم رؤوس كاملة، فذلك
يكون إسرافا ، بل تنشر من الوسط رؤوس حلق من قبل شعرها
كله، من شارب ولحية وشعر رأس، وخلاصة القول أن أنصاف

الرؤوس هذه، المصفوفة كالأوسمة، والتي أذهبت الحوامض
لونها، وأرخاها الموت - أنصاف الرؤوس هذه كانت متشابهة
تشابها مخيفا.. إن ما رأيته هناك كان الرسم البارز للإنسان ..
ال قالب واحد تصب فيه ملايين النسخ.

(٩)

ولكن هل يكون لى أن أشكو ولدى لانو، لانو الذى لا أعيب عليه إلا شيئاً واحداً، هو أنه لا عيب فيه؟ أو لا تعترف معى بأن هذه فضيلة تبعث على الضيق؟

لقد سمعت نصيحة أمى وذهبت إلى لانو، وسرّت عنى هذه الزيارة بعض ما بى.. أتراها صائبة الراى دائماً فى كل ما يتعلق بى؟

ومضت أيام كثيرة وأقبل شهر نوفمبر ، وأحب ما يكون إلى هذا الشهر حين يبدو الجو أكثر مضياً، والسماء مسفة معجلة لهجة كأنها قطيع من كلاب الصيد يتعقب فريسته.

وإذا كان الحظ يزدرينى عزمت ألا أتعبه، بل أترصد له، فتركت كل محاولة.

وقسمت وقتى أجزاء ثلاثة مختلفة، فقسم منها أقضيه جائلاً، وقسم أمضيه عند لانو، والقسم الثالث أقضيه فى المنزل، ولم يكن لطوافى من هدف إلا نفسى، فكنت أرتاد شوارع جبل

سانت جنيفيف الصغيرة، أو دروب لكسمبورج ، وخصوصا فى الصباح حين تشبه الحديقة الموحشة جزيرة صامته فى حوض المدينة المختلجة ولكننى على معرفتى التامة بصور الأشجار، وهيئة المناظر، ووجوه الناس الذين يتنزهون فى ساعات معينة على الحشائش الذابلة، ومعرفتى بمشيتهم ومقاصدهم ، كانت أفكارى مع ذلك تظل عاكفة علي جو آخر، ومناظر أخرى، كنت أبحث عن نفسى وأتبع نفسى وسط ألف فكرة أشد هوجا من قطيع من الجاموس فى عهد هجرته.

ثم أعود إلى شارع پوده فير، فأستمرىء فى مسكننا هدوءا يزداد عمقه كل يوم، ولا أحسن تعليله، وكانت حجرة الطعام قد أصبحت أشبه شىء بمعمل حياكة، وأمى التى مارست الخياطة من قبل كثيرا قد أقبلت على مهنة عاملة البيت، فكانت مرجريت تذهب فى البكور إلى المشغل، تحمل إليه ما تم من عمل، وتأتى بنسيج ونماذج، وأمى تعد فى تلك الأثناء أطعمة النهار.

وكننت أجد المرأتين تعملان مهما تكن الساعة التى أقدم فيها، ولم أعد أخجل من بطالتى ، فقد أصبحت أمرا عاديا مسلما به، بل إننى كنت أستشعر لذة غريبة إذ أرقب جهدا لا أشارك فيه أدنى مشاركة، وكانت تشعل فى السهرات الطويلة نار ضئيلة فى الموقدة البروسية بحجرة الطعام.

وسرعان ما اعتدت أن أتى إلى هذه الحجرة لأقرأ .
وكنت أعالج الصغير فى الناي أحيانا ، وأزقع بانتباه شديد
متصل ، حتى تقدمت فى هذه الفترة تقدما محسوسا ، وألقانى
شعورى بهذا التقدم فى أحلام شروود : سأغدو موسيقيا ، وقد
أصير ملحنا ، وتراعت لى حياة رائعة تتألق بالتوفيق ، وتزدهى
بإعجاب الجماهير ، وهأنذا أخيرا أطلق هذه الروح الأسير التى
تذوى وتستسلم لليأس فى غور مكنها .

وحتى توجد جماهير المستقبل كان يبدو من مرجريت على
الأقل سرور بمحاولاتى ، وكانت تذكر جيدا ألحانى المحببة ،
وتدندنها وهى تسحب إبرتها وترجونى مرة بعد مرة أن أوقعها
لها .

فرغت ذات يوم من أداء قطعة وقعتها بكثير من الصدق
والعناية - لما أعوزتنى الموهبة - فرفعت إلى مرجريت عينين
شكراوين ، فاضطربت لذلك ، وبخاصة أن كانت لمرجريت عينا
جميلتان ذابلتان ، تضىفى عليهما الدموع بريقا مؤثرا يكاد يشبه
بريق عيون الأطفال .

ولو كنت رجلا عاقلا لقلت لنفسى : « هذا تأثير الموسيقى فى
روح حساس رقيق » . ولكنى عزوت كل الفخر إلى نفسى ، وأمسكت
قبعتى وأسهرت إلى الطريق وأنا أحس كبرياء يستحيل وصفها ،

لم يبق عندي شك في أنى غدوت مالكا لقوى جديدة وشعرت بأن
هذا التجاوب بين روحى وروح أخرى إرهاب مبین من
إرهابات القدر، فتمتعت وأنا أصبر بأسناني : «أنا على الرغم
من هذا كله شيء، شيء! وليعلمن أنى لست رجلا كسائر
الرجال»

يا اللطموح ! يا للجنون ! إننى لست رجلا كسائر الرجال!
وهذه المهزلة كلها أصلها لحن بالناى ودموع مرجريت.

كانت الساعة حول الثالثة بعد الظهر ، فهمت بضع لحظات
من شارع إلى شارع حتى وجدت نفسى عند سفح كنيسة
نوتردام، وتمخض حماسى عن شيء عجيب: وذاك أنى غصت
فى سلم الأبراج وصعدت لم أتوقف حتى بلغت القمة، وعجبت إذ
وقفت هناك ولم أنقذ فى الفراغ من تلك الأنبوبة الحجرية
الشاهقة ، كما تنبعث قذيفة من مدفع.

كانت ساعة مذكورة ، كنت وحدى مع السحب والريح العاتية،
فلقيت سلاخان وجها لوجه، محررا مخلصا من هذا الحشد من
الأفكار الطفيلية القذرة التى يعيش بينها كنبات مهتضم ، وثقت
بنفسى ساعة، وأخذت على نفسى موثيق، واحتملت أعباء ،
وأقدمت على توضحيات ، وخلاصة القول إننى أنجزت أعمالا
جديرة برجل حق، ولتعلم أننى فعلت ذلك كله فى قلبى.

ولو كتبت تاريخ حياتي لسميت هذه الساعة نصر خامس
نوفمبر أو نصر نوتردام فإنها كانت نصرا: نصرا صغيرا
شعرت بآثاره أياما كثيرة.

وكنت أحيانا أتناول كتابا وأزائل أريكتي لأجلس على مقعد
صغير، في ضوء السجف اللبني قبر الحائكتين ، وأستغرق في
قراعتي فكأني مستغرق في نعاس متأشب..

وأنا - كما ترى - أقرب إلى الطول والنحول، وقد قوست
ظهري مهنة الكاتب واحتقار الرياضة البدنية، و«أقف بشيء من
الميل» كما تقول أمي، وحين أقرأ وأنا جالس القرفصاء على
كرسي الذي لا مسند له، أحس أن كل نقص في مظهري العادي
يزداد شناعة: فأنا ألداعي وأنكمش ، وكأن حياتي تهرب
وتفادرنى لتذهب مع حياة أولئك الرجال والنساء الذين أشاطرهم
بفكري وقائعهم الغريبة.. وفي هذه الأثناء تيبس جثة سلاقان
شيئا فشيئا، ألا تعتقد أننا لو استطعنا أن نحلم في قوة كافية،
لكانت صدمة جد صغيرة، أو استسلام ثانية واحدة، كافيا لنا
في مثل هذه اللحظات كي نموت؟

وكان ينتشلني من هذه الهوة عادة صوت أمي التي كانت
كلماتها تصل إلي وكأنها آتية من خلف حجب سميكة من اللبد،
فلا أصل إلى سطح الدنيا إلا بعد أن تنادينى مرات عديدة، ولقد

كنت أظن دائما أنها تحدث بفطرتها هيمان روى، فكأن نداءها
صرخة أنثى الحيوان التى تحس أن خطرا يتهدد صغارها.
على أن ما كانت تقوله آنذاك كان يسيرا جدا، فكانت - مثلا -
تكلفنى أمرا فأضع الكتاب وقد بطل السحر ، وأصعد بما
أمرت، وكنت قد أصبحت مطواعا والطاعة - بهذه المناسبة -
ليست من فضائل الطبيعية، وأرجو ألا تعزو هذا التغير فى
خلقى إلى الرغبة فى التكفير عن تبطلى، فقد كان له دواع أخرى
لا أشك أنك قد بدأت تفهمها .

وكانت أمى تطلب منى أحيانا أخرى أن أواصل جهرة ما
كنت أقرؤه سرا، وقلما تغفل أمى أن تضيف:

- لعلك تعلمين أنه كان أيام تلمذته، ينال دائما جائزة
المطالعة والمحفوظات فأجيب باستحياء :

- ما هذا يا أماه ؟ اصمبتى يا أماه ! لماذا تتحدثين عن هذه
الأشياء؟

إن أمى المسكينة لاتستطيع أن تعلم ذلك الارتباك الذى
يوقعنا فيه، نحن الرجال ، امتداحنا علانية لمهارتنا أو شجاعتنا
أيام أن كنا صبيانا .

وتؤكد مرجريت من فورها ما قالته أمى:

- ما أحسن قراءتك!

فلا أنتظر مزيدا من الطلب ، وأقرأ ساعات كاملات،
والمرأتان تصغيان بغير أن تقطعا عملهما: ولكنهما تكتمان -
جاهدتين - كل صوت ، وربما تنشقت أُمى قبضة صغيرة من
النشوق، تفعل ذلك محاذرة ، شبه مختلسة، لأنها تعلم أنى أكره
أن أراها تتنشق، أنا الذى أدخن طوال النهار، والذى أفسدتني
ألوان من الرذائل والنزعات وقبيح العادات.

وبين الحين والحين تكف إبرة مرجريت عن الرفيف فكأنها
شعلة دقيقة زرقاء جبست فى رسن، وتصغى مرجريت ويدها
فى حجرها ، وألمح فاما مفتوحا وعينيها مثبتتين على .
ولا أزل حتى أثمل من هذه الكلمات التى لم أقلها ولكنها
تنحدر من شفتي، ولا أوقن بعد أنى لم أفكر أنا نفسى فى هذه
الأشياء الجميلة التى يعبر عنها صوتى فإذا تمتمت مرجريت وقد
بلغ منها الانفعال مبلغه: « ما أجمل هذا ! ما أجمل هذا! » تقبلت
هذا الاطراد كأنه تكريم أستحقه.

وقليلا ما كنت أكلم مرجريت فى العادة، على أن أُمى
اضطرت يوما أن تغيب عن المنزل بعد الظهر ، فبقيت مع
مرجريت وحدى، وجلست فى حجرة الطعام وفق عادتى ، ولبثت
ساعة وعيناي مثبتتان على الكتاب لاتريان شيئا، أحسست
جيشانا فى قلبى ، وارتعاشا فى يدي، واستشعرت رغبة ملحة

فى أن أتحدث إلى مرجريت وأقول لها قولا رقيقا، ولكن الأقوال الرقيقة شىء لا أحسنه ، فتركت العصر ينقضى بغير أن أفتح فمى واستبد بى اليأس حتى إذا أقبل المساء جرى لسانى بكلام مر مثبط موئس، أجل، إن لسانى لينطلق وحده إذا أردت أن أقول كلمات كريهة قاسية، ولذلك لم ألق أى عناء فى إدخال الحزن والغم على قلب مرجريت، وفى إرهاقها بسيل من كلمات كانت مناقضة كل المناقضة لما أحسست حاجة شديدة إلى مكاشفتها به.

استمعت بغير جواب، ثم بدا فى نظرتها حزن وعتاب، فنكست رأسى وسألتها العفو وأنا متلعثم، قالت:

- أوه، لا بأس، أنا أعلم أنك طيب.

وأنت لا تعتقد كل ما قلته لى الآن.

- «طيب!» أنا؟ أنا طيب! أنا ؟ أه! جميل والله! وسرعان ما

تابعت الكلمات المرة مجريها، حتى امتلأت تقززا من نفسى، فتناولت قبعتى وخرجت.

لا ينبغى التسرع فى الصفح عن سبلاقان.

ولكننى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت كثيرا فى هذه الفترة،

أعتقد ذلك، ولست واثقا من شىء، فالذين يسببون لنا أشد

الآلام قلما يشعرون بقسوتهم، ومن هؤلاء من يظنون أنهم غمروني :إحسانهم وأراهم في الحقيقة أرواحا شريرة موكلة بي . كانت لي في أيام مراهقتي عُلقة بابن عم لي، أحببته كثيرا ، فكنت أجاريه في محاولاته ، وأثنى على حسناته، وأغضى عن سيئاته، ومهما حاسبت نفسي لم أجدني أسأت إليه أية إساءة، ثم كان بيننا ذات يوم شجار ، ففتح لي ابن عمي قلبه ، واطلعت منه على أحقاد معمرة، أحقاد طويت زمنا طويلا، فلم يزدنا ذلك إلا أوارا، أحقاد رأيتهـا ـ وأأسفاه! لا تركز على غير أساس ، وتخلصه القول أنى اكتشفت في ذلك القلب كنزا من البغضاء وجدتني أنا هدفه المحتوم ووجدتني أنا سببه.

كيف يكون لنا أن نؤكد أنا لم نسبب أذى لإنسان نظرنا إليه، ولو مرة واحدة، ومررنا بحياته، ولو في التفكير؟

أما الأمر الذى يجعلنى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت فى شهر نوفمبر هذا، فهو أنى كنت أدخر كل تقلبات مزاجى للانو. كنت أزوره كل يوم، ولعلى ذكرت لك ذلك من قبل، فإما ذهبت إليه وقت الغداء وإما ذهبت إليه مساء بعد العشاء، لأن لانو لم يفقد وظيفته مثلى، وهو يذهب بانتظام إلى مكتب وكيل الدعاوى الذى يعمل عنده.

والغالب أن أجد لانو وزوجه يطعمان ، فأجلس على كرسي

هزاز قرب النافذة وأشرع فى الترجّح ، كما أشرع فى البغى
الفضيع.

ومن حسن الطالع أن لانو صديقى! ومن حسن الطالع أنى
أحبه ، فلو لم أكن أحبه لضقت به أشد الضيق.

ولولا الحب ولولا الصداقة لنفّرني من الإنسان كل شىء،
انظر إليه وهو يأكل ! انظر إليه وهو يشرب!

إن أكتاف لانو فتى هادىء، بطيء الاستجابة، لا تعوزه
الثقافة ولا الظرف، ورث عن أبوته عادات ريفية، وعسرا فى
السلوك، ولذا فقد يتفق لى أن أعاتبه معاتبه الصديق لصديقه،
ولكننى لا أطيق أن يقحم غيرى نفسه فى ذلك، فالسخرية من
لانو امتياز لى لأنى صديقه، وهى امتياز أثار عليه غيرة شديدة.
كنت أستلقى على الكرسي الذى يهتز اهتزازا ضعيفا، وقد
وضعت ساقا على ساق وأملت رأسى إلى الوراء، وأدخن لفيفة
بعد لفيفة وأنا أنظر بعين شبه مغمضة إلى لانو وزوجته وطفله
وهم يأكلون.

كان الصغير يبسط فى صحفته، وأكتاف ومارث يأكلان
وهما جالسان وجها لوجه - ولاتظن أنهم كانوا يختلفون فى
طريقة أكلهم عن غيرهم من الناس، أما أنا فما كان لى إلا أن
ألاحظهم، وهو موقف مؤلم لنا جميعا.

إذا أردت أن ترعى هيبتك فأياك أن تأكل فى حضرة إنسان
لا يشاطرك الجوع ولا الطعام.

لأى شىء ملء المعلقة حتى يسقط جزء مما تحتويه على
الصحفة قبل أن يبلغ الشفتين؟ ولأى شىء إمالة المعلقة ودسها
فى الحنك؟ ولم هذا الصوت المرتفع عند ارتشاف الحساء؟
كان يشق على التغلب على تقزى، ولكن لانو وزوجه لم يكونا
يرتابان فى شىء، ألسنت صديقهما؟ ألم أثبت لهما ذلك من قبل؟
ألسنت أنا أيضا إنسانا فى كل نقائص الإنسان؟

كان تفكيرى فى أنى حين أشبع شهواتى أستصحب مثل
هذه القذارة الساذجة ومثل هذا العسر - كان هذا التفكير يزيد
ضيقى ولا يبدده، ولكننى كنت أضطر إلى الاعتراف بأن فكى
أيضا يقطع حين أمضغ الطعام، وبأنى - ولاشك - أكل أيضا
وفمى مفتوح، وأتمطق وأخضم، ولا بد أن عين الناظر ترى حركة
لسانى، وتتبع استحالة الطعام بجهد أسنانى، ولاشك أن أنفى -
وكثيرا ما يسده الزكام - ينفخ ويصفر عندما يبدأ الفك فى
العمل.

كان المنظر يكربنى وأفكارى تخجلنى، فأنهض لأنصرف،
فينظر إلى لانو بعين صافية تتجلى فيها الدهشة، ويقول لى
باسطا:

- لماذا ؟ لا شيء يعجلك .

فيفتر عزمي وأجلس .

ولو استطاع لانو أن يدهم مجرى أفكارى، لوقعت فى اضطراب وحيرة، ولكن أحدا لا يستطيع أن يعرف مجرى أفكارى، على أننى أوشكت مائة مرة أن أفصح نفسى وأقول لصديقى: «أمن الضرورى إذن أن يحرك المرء أرنبة أنفه وهو يأكل اللوبيا؟»

فإذا ما انتهى الطعام أشعل أكتاف غليونه الصغير، وجعلنا نتسامر ونحن نحتسى القهوة، فأرتجل بعض التعليقات المبهمة على أحداث اليوم، لكى أتخلص من تأملاتى الصارمة ، ويصغى إلى لانو بانتباه مجامل، ويتمتم عند كل عبارة أقولها:

- إنى أوافقك تماما على ما تراه .

فلا يلبث هذا الإصرار على الإقرار أن يضجرنى ، ماذا؟ إنى لأنطق بالكاذب وتفاهات فيوافقنى لانو تماما على ما أراه، لانو الذى أعده ذكيا ، صديقى لانو، صديقى الوحيد .

ويبلغ بى الأمر أن أفتقد مرارة فيتيه الذى لا يدعى أتم مقطعا إلا ويقذف بعبارة لازعة، كأن يقول : «أنا لا أقرك ألبتة على ما تراه .»

فأعود إلى صمتى « وتأملى الشانىء الأليم، وأضع ركبتي بين

يدى وأسرع فى ترجيح الكرسي الهزاز، وكان تفكيرى فى أن هذا الترجيح المستمر قد يفتى نفس أكتاف ومارث، يسبب لى شيئاً من الاضطراب ، ولكنه لا يمنعنى من المضى فيه.

وإذ يشبع الطفل يرقد فى السرير، وهو جميل وعلى حظ كبير من القوة، فى لحمه شفافية ولدونة، ومن المؤسف أن خنصر يده اليسرى شاذ التركيب ولادة، فهي مثنية نحو راحته .. إنك لتستطيع أن تفتش عن النقص فى الكائن الجميل، فالنقص موجود دائماً، ولو كنت كسلاخان لعجز بصرى عما أن يرى غير هذا النقص، ولأفسد عليك هذا النقص بعدئذ كل ما عداه.

وكنت أقبل الطفل - وأنا عراًبه - وأحمله على كتفى إلى غرفة النوم، وكنت أتخيل أحياناً - وأنا أنظر إلى ذلك الوجه الحلو الذى لم تكذ تتميز قسماته، والذى يبدو كأن ملامحه كلها ما تزال مخبوءة فى جراب رقيق، كنت أتخيل فيه وجه الشيخ الذى سيفدو إياه فى المستقبل، فأحس الكآبة تنهشنى.

وينام الطفل ، فنعود إلى أحاديثنا التافهة وإلى تبغنا، وأصغى من خلال الباب نصف المفتوح إلى تنفس الطفل، وإلى صيحاته وهو يحلم، وإلى كل ما يصدر عن هذا الوجود الصغير النائم من صوت، وأحياناً كانت هذه الأصوات لا تبدو لى طبيعية، فيساورنى القلق، ولكن لانو وزوجه يظلان هادئين ،

فأقدر أنهما عديما الإكتراث جامدا الإحساس، غير جديرين بحمل الواجب الأبوى الثقيل.

وأحيانا أخرى كان لانو يخوض مع زوجته فى حديث طويل عن شئونهما الخاصة، وكل يقول: «أتسمع؟» فأجيب: «كيف لا؟» على أنى لا ألبث أن أجد كل هذه الأسئلة التى يثيرانها غريبة على تماما، فكثير من الأشياء فى حياة صديقى الوحيد كانت مغيبة عني، وكثير من لانو كان مسلوبا مني، لقد كانت تعصر قلبى سورة الغيرة.

فى مثل هذه اللحظات كنت أفكر فى ألوان من الانتقام، فكنت مستعدا كل الاستعداد أن أصب على لانو- إذا ترك لى أدنى فرصة - سيلا من الفظائع التى كنت أجترها اجترارا. ويمضى الوقت وهو لا يقدم إلى سوى كلمات لطيفة ، فأزدرى غيظى، ثم أتخيل وأنا أهبط السلم بعد أن صافحت لانو وزوجه - أتخيل فى فزع أنه يقول لها:

- لله در سلاقان ! ما أحسنه من فتى!

فأحنى رأسى، ولا أشعر بكبرياء ، لأن كل هذه القبائح التى لا أملك إلا أن أراها فى صديقى ، كل هذه القبائح ليست فيه، بل فى أنا، فى أنا وحدى.

(١٠)

أصيبت مرجريت فى شهر ديسمبر بذبحة ألزمتها الفراش
عشرة أيام متعاقبة وكانت أمي تحمل إليها المرق والأشربة
والدواء.

واختل نظام المنزل أيما اختلال، فقد اجتمعت على أمي
رعاية المريضة ونظافة المنزلين وإعداد الطعام، وكانت مع ذلك
تخصص بعض الوقت للحياكة، ولكنها كانت تقطعه من راحتها،
وكنا نجلس إلى الطعام جنباً لجنب ، ونأكل مسرعين، وكان
يخيل إلى أن هوة عريضة تنفجر بيننا.

على أننا هكذا عشنا سنين طوالاً.. وإذن فقد كان تعودنا
شهرين اثنين عادات جديدة كافياً لأن يعطل عادات قديمة قدم
الحياة.

وحاولت أن أغنى بعض الغناء، وأصابتنى تلك المبادرة
الطائشة التى يظهرها الرجال وسط المتاعب البيتية، فكنت أتنقل
من حجرة إلى حجرة، أجلس على مقعد وأتكىء على كل قطعة
من الأثاث، وأفتح الأبواب وأغلقها، وأنقل الأشياء من أمكنتها بلا
غرض، وكانت أمي ترفع منظارها بظفر سبابتها من حين إلى
حين وتنظر إلى، وعلى أن نظرتها كانت هادئة وطبيعية جداً فقد
كنت أشعر بالخجل وأحول رأسي، وأتشاغل بشيء لا يلبث أن
تسأله نفسي.

وعندما كانت أمى تذهب إلى مرجريت وبين أصابعها وعاء
يتصاعد منه البخار - وكانت مرجريت كما ذكرت لك تعيش في
حجرة مجاورة لمسكننا - كنت أذهب إلى مسطح السلم وأسند
الباب بقدمى وأنتظر وأنا أقرض أظفارى.

وتعود أمى فتقول.

- إن صحتها تتقدم.

فأجيب:

- أه! حسنا، حسنا!

وأردت أن أظهر قلة اكتراثى بالأمر، فنجحت فى ذلك بعناء.
وزارها الطبيب مرة، وكعانت زيارته مطمئنة على وجه
الإجمال، فلم تكن حالة مرجريت خطيرة، وكتب الطبيب تذكرته
عندنا، وقال لي وهو ينصرف:

- لا تقلق يا سيدى، فستشفى أختك بعد أسبوع.

ولم يخطر ببالى أن أفهم الطبيب حقيقة الأمر، فقد سررنى
التفكير فى أنه كان يمكن أن تكون لى أخت كمرجريت ، وملأتنى
هذه الفكرة بأشواق حزينة.

وفى ليلة مسهدة قضيتها كلها أحاسب نفسى، لاحظت
متعجبا أنى غيرت أياما أربعة لا تساورنى فكرة من تلك الأفكار
النايبة التى كانت تشوه روحى، وتعذب حياتى ، فشعرت لذلك

بنشاط عظيم أبقاني يقظان حتى الفجر.

وجاءت المسرات تتري، ففي اليوم التالي قدم لانو إلى شارع
بوده فير، وكنت قد تركت زيارته منذ مرضت مرجريت، وأحضر
إليّ في ذلك اليوم عفلا، ملخصات قضائية مذيلة بالأحكام تكفل
هو باستنساخها وفي نيته أن يجلب لي بعض النفع.

ولعلك لا تعرف «التذييل بالأحكام» في عرف التقاضي، فأليك
معناه: يضيف وكلاء الدعاوى إلى أوراق عملائهم خلاصات
مكتوبة على ورق مدموغ، تحصل عليه ضريبة عالية، وهدفهم من
ذلك أن يزينوا أجرهم، وقد جرت العادة بأن يوكل عمل هذه
الملخصات إلى صغار الكتبة فيكتبوا بضع صفحات عن
القضية التي حكم فيها، ثم يستنسخون ما يتفق لهم من المدونة
القانونية. أربع كلمات أو خمسا في كل سطر عن الأمر الملهوج،
تمحل بين، ويتفضل وكيل الدعاوى الذي يربح من ذلك ربعا
كبيرا، فيدفع أجرا طيبا لقاء هذا العبث الذي ينجزه الكتبة في
غير ساعات عملهم، إنه أمر مضحك، ولكنه هو الكائن.

وحمل إلي لانو مدونة، وإضبارة من الأوراق، فشرعت في
العمل بهمة، وعزمت على أن أقوم بحاجات المنزل، وقد مرضت
مرجريت، وتكاثرت على أمي الأعباء.

فكنت أقضي النهار وشطرا من الليل أستنسخ بقلم محموم

قانون إصابات العمل بحذافيه، وكنت أعد سرا: ثمانية أفلس،
ستة عشر فلسا ، أربعة وعشرين فلسا، ووجدت في ذلك العمل
المضحك دوافع للفخر ، ودواعي كثيرة لتقدير النفس ، وكما قلت
لك أحسست أنى أصبح إنسانا آخر ، لقد غير سلاقتان .

أما التماس أسباب هذا التحول، فقد حاذرتة محاذرة فيها
خوف وتطير وعددت هذا التعليق لقدرتى المؤسسة على التحليل،
عددت هذه الهدنة وهذا السبات نعمة.

ولكن أتى يوم تجلى الأمر فيه دون أن أتجشم لذلك عناء.
كنت فى حجرة الطعام وقد شرعت فى الكتابة، وكانت
أصابعى الملوثة بالحبر تركض على الورق الأزرق ، وعيناي
تصاحبان أصابعى نشطتين ، ففتح الباب، ودخلت أُمى تدفع
أمامها مرجريت.

كان عنق مرجريت ملفوفا بسببية حريرية بيضاء، وشعرها
الجميل مصفورا، ووجهها يعلوه بعض الشحوب ، فبدت فى ذلك
البهر الحلو الذى يختص به الناقهون.

جلست فى ركن المدفأة على كرسينا الكبير الموقر ، وفى
هذا اليوم وحده فهمت ما حدث لى.

هكذا أصبح لحياتي معني ، ألق إلى بالك، لقد أصبحت
لحياتي وجهة، فلم تبق مبددة كقطيع بغير قانون، بل غدت
مجتمعة وجهة. أصبحت نهرا، ولم تبق مستنقعا، أصبحت أغنية
رصينة ، بعد أن كانت ضجيجا متنافرا.

وبدا لي أن في الدنيا أناسا تدور أفكارهم كلها حول قطب
واحد لاتفارقه ، كما تدور الثعابين حول عصا الإله.

في الدنيا. أناس يعيشون في حالة من الرضا، وقلوبهم نقية
تعتادها الأمانى الحلوة، فسأعيش أنا أيضا في حالة من
الرضا.

في الدنيا أناس يملكون العالم، ولو كانوا في حضيض الفقر،
فسأملك العالم، سأملك نفسي آخر الأمر، لقد خلصت وأصبحت
قادرا على الحب، وكل شيء يثبت لي ذلك: التسامح في الوجوه ،
والضوء الخالص على الأشياء، والانبعاثات والسكنات ، والثقة
بالمستقبل ، والظما إلى التضحية ، وارتعاش يدي.

وصح عزمي ألا أبوح بهذا اليقين ، ألا أخشى إذا اعترفت به
وأذعته أن أغيره، بل أمحوه؟ ألا يحتاج إصلاح سلاقان أعواما
طويلة، ليألف نفسه ويألف ثراه، ويصبح جديرا بحظه الجديد؟
ليكن هذا الحب الصامت سعادة أو شقاء.. فهذا شيء لم
أفكر فيه قط، وكان ظني - أنى قد أبادل هذا الحب - يززعزع

أرسخ أفكارى، فأفضل أن أنحيه، وعلى العكس كنت أميل
شديدا إلى أن أتأمل الفكرة المضادة، فما كان لينتقص من
معنى الحب عندى أن يكون حبا منكورا مزدري، بل إن السعادة
التي كنت أتوق إليها كانت سعادة تتغذى بفيض من الآلام.
لاشك أنك ستضحك.. فإن لديك عن الهناءة آراء معقولة
محددة أعجز كل العجز عن دحضها، بل عن فهمها، وأنا فى
الحقيقة لا أدافع عن نفسي ولا أنتصر لقضيتى - وقد علمت ذلك
من قبل - وإنما أحاول أن أمكنك من الاطلاع على ما كان يجرى
فى باطنى، ثم إنى ليس فى نيتى أن أسهب فى هذا الجزء من
قصتى، وقد أستطيع أن أعبر عن اضطراباتى وسخافاتى
وانحرافاتى، أما السعادة..؟ أيمكن أن تروى السعادة؟ أيمكن
أن تثير اهتمام أحد من الناس بسعادتنا، بهذا الشيء المضجر
الذى يبدو لعيون غيرنا من الناس راكدا كل الركود، تافها كل
التفاهة؟

حسبى أن أقول إننى كنت سعيدا بلا حذر ، ولم يبق لى
شئ من جلاء البصر لألاحظ أن اندفاعى شبيه بىأسى ، وأنه
محموم مسرف أعسر مثله ، وأخيرا أنه كان يعوزه الاتساق .
وكان من العسير - حتى على المراقب اليقظ - أن يتبين نوع
الانقلاب الذى يتم فى، فإن شيئا من مظاهر وجودى لم يتغير،

وقد عادت مرجريت حين شفيت إلى مجلسها قرب أمي، كان يسمع صوت آلة الخياطة وهي تدور، وصوت قلمي من حين إلى حين إذ ينقر قعر المحبرة، وكنا نتناول طعامنا مجتمعين في المطبخ الممتلئ بالبخار والروائح الشذية.

وكانت عاطفتي تثقلني، وكنت أرمقها باضطراب وخجل، وكأنه شيء هش يخشى المرء أن يحطمه وهو يحمله.

كنت أردد في نفسي بين كل دقيقة وأخرى: «تنبه! فهاتيك الحياة الحقّة تبدأ!» وأحياناً كان يستولي على القلق من مفاجآت المستقبل فأمل، كما يأمل كثير ممن عزتهم السعادة، ألا يكون الأبد كله سوى إشباع للحظة الرضا التي أنا فيها وأحياناً كانت تعذبني الأحلام الطامحة، فأراني أصعد نحو قمم الفضيلة، نحو الكمال وروحي مجللة بالبركات، نشوى بالغبطة الربانية، مخلصمة مطهرة، أجل، حياة قديس! ولم لا؟ ألم يجتب السعداء من بين قطيع الخراف الجرباء؟ وهل في الفردوس مكان جدير بالملك الساقط الذي مسته علي حين فجأة رحمة الله؟

تلك كانت أفكاري وأنا أستنسخ - بقلم مترنج - قانون إصابات العمل مادة مادة.

وأحياناً كانت أمي ترجوني في أمور صغيرة، فأؤدي لها ما

تطلبه فى عجلة كنت أود أن تكون أقل ظهورا، ولكن المرء لا يستطيع أن يـ، يتحوذ على كل شىء على الحبور وعلى امتلاك الأعصاب.

وأحيانا كانت مرجريت تغنى، فأصاحبها بفكرى، مراعى أن يظل غنائى باطنا حتى لا يفتضح أمرى.

وكنـت أتجنب النظر إلى مرجريت الحقيقية الحية، ففى نفسى كنت أتأملها، وفى نفسى كنت أتوجه إليها بدعاء صامت، لا تبتسم ! لا تسخر منى ! فلو أنتى حققت الحياة التى كنت أحلم بها لكان ذلك شىئا جميلا.

وكان يتفق لى أيضا أن أفكر فى أصدقائى، فى أولئك الرجال الذين سمعـتـنى أتحدث عنهم بعبارات الازدراء، فكان أودين يبدو لى عندئذ شخصية ممتازة ونفسية عالية، كان لها فى أثر طيب دائم، وكانت أحزان پوبير تبعث فى نفسى عطفـا لا تردد فيه ولا تحفظ، لأعينن هذا الرجل، ولأواسينه، ولأردن إليه الهدوء والسعادة، ودفرينى ! إنه الحياة نفسها، إنه الصحة والقوة الفياضة، ما أمرحه صاحبـا ! وفيتيه.. أية حكمة نصوح لم يعلمنى إياها؟ لقد علمنى أن أؤدب غرورى، وأن أتواضع فى تقدير فضائلى وقوتى، وقد قاسمنى لديو أفراحه فى كرم ، ولم يكن جـاى قط غيابا كما ظننته - وإنه لظن أخزانى - ولكنه كان ذكيا

نافذ البصيرة، وقد أسأت الحكم على امرأة بتسر، وأسأت
تفسير أفعال كوى.

أما لانو أخى المحبوب وصديقى المجتبى وولى نعمتى فلم أك
أستطيع التفكير فيه إلا بحنو واضطراب وندم.

وأخيرا كانت أفكارى تترد دائما إلى أمى وإلى مرجريت، إلى
تينك العزيزتين اللتين ساقضى بينهما حياتى الجديدة، فيا للنور
الدافىء ويا للعطر ويا للموسيقى الناعمة!

كان ذلك كما ترى جميلا ومؤثرا جدا، وهكذا دامت الحال بلا
انقطاع من السابع عشر من ديسمبر إلى الخامس والعشرين
منه.

(١١)

خرجت يوم عيد الميلاد لأتغدى مع لانيو، وكان قد دعاني إلى
وليمة صغيرة خاصة.

كان البرد جافاً لاذعاً منشطاً، وكان المشى متعة، ولو كانت
نعلاك مثقوبتين . فزرت على معطفي البالى وخرجت مبكراً، ألا
يزداد الغداء مع الصديق حلاوة حين يسبق بحديث طويل؟
كان الطريق مألوفاً لى ، وكانت أقدامى كأقدام الدواب
المسرحة تدب دائماً على أثارها المرسومة، إن باريس كبيرة،
ولكن لى فيها قريتى، فأنا كأكثر الناس لا بد لى من وطن صغير،

ولقد يظن أولئك الذين يطوفون بالعالم أنهم تخلصوا من هذه العبودية، فهلا ترى أنهم محتاجون إلى ارتجال وطن لهم في طبقة السفينة، أو في عربة القطار؟ إنهم ليضطرون أحيانا إلى أن يحملوا هذا الوطن المصغر في حقيبتهم أو في جيبهم، أو في نظرة رفيق عزيز.

يلذ لي أن أهبط في شارع الكريدينال ليموان، فهو ينحدر إلى النهر وذراعا ميسوطتان، وهو يحملني كغربة تطلب الإشباع، وهو مسرع كما تندفع قوى مركومة.

ثم السهل، والأفق الممتد على نهر سين وأرصفتها، والمعبر الضيق، والجزيرة وهذا الشاطئ الإقليمي الذي تنسى عليه باريس ضجيجها العنيف.

رأيت مرة أخرى كل هذه المناظر الحلوة بعيني رجل سعيد، فياليت هذه الصورة تبقى لي دائما في أيام البأساء.

وكان لانو قد خرج مبكرا ليشتري بعض الحويجات ولم يعد بعد، وكانت مارث مشغولة بإعداد وليمتنا الصغيرة، فاستقبلتني في ثياب المنزل، وهي قلنسوة من المخرم وقميص قصير، ألا أعد فردا من الأسرة؟

وأمسك الصغير بيدي ليريني الكنوز التي وجدت بمعجزة على المدفأة عند الفجر وكان كل ما في المسكن الضيق ينسم هذه

السعادة العائلية التي كنت أحلم بها كأنها أرض محرمة.
وشاقتني إدارة اللعب الميكانيكية، وتصنيف المكعبات
الملونة، ورعى الخراف الصنوبرية - شاقتني ذلك كله إلى الساعة
الحادية عشرة. أما كيف نزل البلاء بعدئذ وكيف بدت إمارات
انهيارى الباطنى، فذلك ما لا أستطيع أن أصفه لك على وجه
الدقة وربما كان سبب ذلك كله هو هذا القميص الكمين.. ما من
شئ إلا يصلح عذرا للنفس غير الحصينة.

ومارث إنسانة جميلة، سمراء ممكورة، رزان فى مرح،
متحفظة وإن لم تكن مرتابة، وهى زوج صديقى ، فلم تستهدف
حتى ذلك اليوم لخيالى الجامح.

اتفق أن انحنت مارث عن المائدة لتصلح شيئا فى الثريا،
ورفعت ذراعها ، وكان كم قميصها قصيرا هفهافا فضفاضا،
فاجتذب بصرى ذلك الكم وصعد على الذراع إلى ظلمة الإبط
المبتل اللبد.

وفرغت مارث من شأنها وثنت ذراعها والتفتت وغادرت
الحجرة.

أما أنا فكنت جالسا على الكرسي الهزاز أترجح وقد لففت
ساقى، وكان الطفل يلعب على البساط ، فلم يدرك أحد ما حدث.
سيدي، أنت رجل، فلست بحاجة أن أسهب لأشرح لك كنه

الأفكار التي احتوتني ولا كنه الحادث الذي مر بروحي .
وحشية قظيعة، اغتصاب ، هياج، هذيان ، ثياب ممزقة،
توسل ونحيب ، لا شيء بقادر على أن يصد العاصفة، لا الشرف
ولا الصداقة.

كنت نائرا مستبدا، ثملا، ولم تخف على بصرى خافية من
ذلك الجسم الذي بين يدي، ولا من أفعالي.

وعبرت مارث الحجرة المجاورة ، فكشف لي ضوء النافذة
لحظة عن حدود جسمها الذي كاد يكون عاريا في ثوبه
الهفهاف، ضربة سوط أخرى، هياج جديد، ورفعت رأسي إلى
السقف حيث صورت قصة من وحى الخيال الجموح: لقد سرقت
هذه المرأة وحملتها إلى غرفة مظلمة عطرة فيها سرر مشعثة ،
تحت مصباح تسجسه تشنجات عصبية.

وبعد ذلك رحلة، الرحيل! نستطيع أن نرحل! حياة لاهثة لعينة
رائعة عبر قارات مجهولة. أسيا! أو جزائر المحيط أو أنتيل!
وكان الطفل قد بدأ يغنى عند قدمي وهو يهز ناقوسا، من
الخشب ، حسنا سيترك الطفل لالنوا! سيكون هذا الطفل عزاء
لانو، وسأكتب إليه كتابا أوضح فيه كل شيء، وكتبت الكتاب من
أوله إلى آخره على طلاء السقف الناعم الصقيل.

وتراعت لي قمرة في سفينة، لها نافذة مدهامة، يصدعها أفق

البحر، وعناق يهتز مع رجة الآلات، وينقلب مع اضطراب السفينة، وأيد متشبثة بالمتراس، أيد يشنّجها الأسى، وندم اثنين ، يسحق في عناق مخيف.

ولكى أبين كل شيء يجب أن أضيف أن ما خالجنى لم يكن يصدق عليه تماما اسم الشهوة، فقد كان خيالا من تلك الخيالات التى تشبع نفسها بنفسها، وما كنت لأجىء بأدنى حركة لكى أحقق خواطرى المجنونة، كلا، فهذه السورة كلها، ظلت تتمرغ فى الروح ولم تكبد تتصل بموضوعها ، فحش جبان، متستر، منعزل.

أوشكت أن أتم كتابى إلى لانو، وإذ بنقش من تلك النقوش المبهمة المزائدة التى تطفو كالشبح وتتابع كالموج على إطار السقف - إذ بهذا النقش يغدو فى غفلة منى تلك الخصلة الشقراء الجميلة التى تنوس وتتلوى أمام أذن مرجريت حين تخطط منحنية على عملها وبدا وجه مرجريت الحلو كله على السقف، وله تلك النظرة التى تستغنى بها أن تتمم «أوه إننى أعلم أنك طيب.»

حسنا، ستتنسى مرجريت

مرجريت! أبهذه السرعة..؟ ووقف حلمى لاهثا كالجواد المنهوك إذا عثر وكاد يكبو، وغاص من الحلم كل ما كان فيه من

حرارة وحياة.

وعندئذ رن صوت مارث، وإخالني أذكر أنها قالت عبارة من
أيسر العبارات:

- لقد تأخر عنك أكتاف، سوف يسوءه ذلك.

ففاصت الصور جميعا في سحابة غبراء، وأحسست ارتعادا
وتعاب وحرزنا كمن خنق أوهامه على أريكة فندق: ضعف في
الساقين، ودوار في الرأس وتهافت في القلب وفوق ذلك كله رغبة
عنيفة في البكاء والأنين.

ونهرضت، وذهبت إلى الردهة وتناولت معطفي فقالت مرجريت
وقد ظهرت على عتبة المطبخ:

ماذا تفعل، هل نسيت شيئا؟

- أجل، نسيت.. نسيت..

ووجدت نفمة صوتي جديرة بالثناء، فلم أزد حرفا، وفتحت
الباب وانطلقت أهبط الدرج، ومازلت أذكر وجه مارث وقد شاع
فيه التعجب وهي تتقدم في القمة وتنحني علي حاجز السلم.
ولما وصلت إلى الطبقة الأولى وجدتني وجها لوجه مع لانو،
وعلت وجهه - وهو يمد إلي يده - بسملة حلوة رقيقة، فقلت له وأنا
أتحاشاه:

- يا أكتاف، معذرة، فلن أبقى معك، أنا لا أستحق البقاء، أنا

لا أستحق أن يهتم بى أحد .

وقف لانو مذهولا ، وكدت أوقعه وأنا أحاول الإسراع لأخرج
من المنزل، وهبطت الدرجات الأخيرة قفزا وأنا أصيح:
- لا لا يا أكتاف ، يجب ألا تحبنى!

وبينما كنت أرد باب الدهليز سمعت على الدرج من خلفى
وقع خطى مسرعة وكان لانو ينادى بصوت متغير:
- لويس ! لويس.. يا لويس..

وكنت قد بلغت الشارع فمضيت فى طريقى بغير أن ألتفت.

لا ينبغي للمرء أن يسر، فزوال السرور عذاب شديد، كان
الوقت ظهرا، وبدت الحديقة النباتية مقفرة..أرض جاسية تصر
من البرد، ومقاعد يغشيها الصقيع ولكنى جلست على أحد هذه
المقاعد ، وكانت على يمينى شجرة مدت أذرعها جميعا، وكأنها
تحلف يميناً فى جلال ووقار.

نظرت إلى جذعها الأعجز، وإلى أفنانها التى لا تحصى، وإلى
جذورها الضخمة التى تبرز وهى فى مكانها قبل أن تغوص إلى
غير رجعة، فكأنها فقار الدُّخس وفكرت:

- هذه الشجرة غير مقيدة الإرادة، فهى تستنبط الأرض حيث
تجد مقدارا معيناً من العصارات ، أو مقدارا معيناً من

الخلاصات ، أو مقداراً معيناً من الأغذية أو السموم، أو مقداراً معيناً من المواد المتراكمة منذ بدء الخليقة، وهى تستنبط ولا تأخذ إلا ما تحتاج، أما سواء فتنبذه ، إنها تنتقي ما ترغبه من بين هذا الخليط.

أما أنا فمقيد الإرادة.. فكل فكرة هائجة تجد فى روحى المأوى، وكل بذرة تسقط على وجودى تستطيع أن تنبت ، فأين أنا ثمة؟ أين أنا بين هذا الحشد؟ أيمكن أن أحظى بشيء من الهناءة بين هذا الرهط من الشياطين التى تناصبنى العداء؟ كيف أعرف نفسى أو أسميها أو أناديها من بين هذه الوجوه كلها؟

لا تقل لى: «إن هذه الأفكار عندك ولكنها ليست إياك» ماذا ؟ ألسنت أنا الذى أفكر؟ ألسنت أنا الذى أغذوه هذه الأفكار؟ ولا تقل لى بخاصة: «إن هذا كله لا يعيش إلا فى عقلك» إذ لا أهمية إلا لما يجرى فى العقل.

ما كنت لأجعل من حياتى شيئاً طاهراً نقياً.

إننى عاجز عن الحب، عاجز عن الصداقة، إلا أن يكون الحب والصداقة عاطفتين تافهتين حقيرتين.

أنا ابن عاق، وصديق خائن، ومحِب غادر، فى أعماق قلبى تمنيت موت أمى، وخنت أكتاف وأخزيت، واغتصبت مارث

ودنسستها وغدرت بمرجريت، وفعلت ألف جريمة أخرى، انمحت
من ذهني حتى ذكرها وهذا أشد الأمور إقناطا.

أنا لا أوقر شيئا من أعماق قلبي، وعلى الرغم من ذلك...!
وعلى الرغم من ذلك كنت أحلم بحياة لو عشتها لكانت أجمل
حياة وأنبلها: ولست مذنبا ، فما أنا بالسيد المطاع.. لا تتهمني
قبل أن تراجع نفسك.

لنا عبد قن، فمن يمنحني الحرية؟ من ينقذني من الهوان؟ من
يستطيع أن يرد علي كرامتي المفقودة ؟

إن العالم يروغ مني، فأضطرب بين الأشباح، فمن يستطيع
أن يتقدم لينقذني؟

هكذا كنت أفكر وأنا جالس علي مقعد حديقة النباتات، وكنت
مقرورا وسرعان ما أحسست جوعا، ولسيت أخلو من مرارة إذا
أقرر أنني أستطعت أن أحس البرد والجوع على الرغم من
ألمى... هذا جرح جديد للكبرياء.

حاربت البرد بالسير والجوع برغيف من تلك الأرغفة
الصغيرة المرصعة بالزبيب ، برغيف من أرغفة الجويدار
الصغيرة التي كانت متعة صباى.

وكذلك همت طورا أجوس فى دروب الحديقة، وطورا أضرب
فى الشوارع المجاورة، حتى مال ميزان النهار وغمت الشمس،

وها قد كادت تمضى على ثلاثة أيام وأنا أهيم فى باريس بلا غاية ولا مأوى لقد هدأت نفسى، ولكن تعاستى شديدة.
لست أبحث عن الموت، فإنى لم أستعد بعد للموت.
ولدى نقود تكفينى يومين، ثم أعمل أعمالا تافهة لأجد طعاما
لا تحدثنى عن تينك المرأتين اللتين أظنهما جالستين الآن فى
حجرة الطعام تخيطان، فيم تفكران؟ ماذا تقولان؟ لا تحدثنى
عن ذلك، فلقد سئمت التفكير فيه طوال هذه الأيام الثلاثة.
إن القدر ساقنى الليلة إلى هذه الحانة، حيث عن لى أن
أقابلك.

ولم أشرب من الخمر إلا قليلا، ولاشك أنك لاحظت ذلك،
وكنت أود لو أكثر من الشراب، غير أن معدتى مريضة .
لا ترو لأحد هذه القصة التى ليست بقصة، فكل إنسان يحمل
عبئه من العذاب وعبث أن تثقل عليهم بقصة سلافان، وعبث
كذلك أن تضحكهم منها.

لست أدري ماذا أفعل من بعد، ولا ماذا أصير، قد أرحل إن
عطفت على الريح وحملتني، وقد أبقى، ربما..
أنت يا سيدى، يا من تبدو سمحا طيبا، ويا من تركتني بهذا
الرفق العظيم أتكلم.. لعلك تدلنى على ما ينبغى أن أفعل..

فما بدت لى قط أشد ضعفنا ولا نحسا، وكان ذلك وهما خالصا،
فلقد عرفت من بلايا العرق تحت لازورد يوليو ما تقصر عن
شأوه بليات الشتاء.. لا شمس إلا فى سلام القلب.
أين أذهب؟

احلوك الليل.. وبدأ الثلج يتساقط ، وكنت إذ ذاك فى
شارع بيفون، فعدت إلى سطح الدنيا لحظة لأقرر لنفسى أن
الثلج يتساقط، ثم غصت ثانية إلى الأعماق.

وبعد برهة وجدتني محاذيا خفر البلدية بشارع مونج، ميمما
شارع پوده فير كان الوحش يعود إلى مثواه، كان يعود وحده
إلى المأوى، حيث الدفء والطعام.

كل شىء كما كان. كل شىء على وتيرة واحدة، خروج
فأياب. فألى المنزل بحمل من الغضب والإشمئزاز.

سیدی. لقد جاوز الليل على منتصفه ، واستمعت إلى حتى الآن بكثير من الصبر والكرم، فلأسرف علي رحمتك ولأفرغ من قصتي.

انقضت سبعة أيام منذ تلك الأحداث التي ارتبطت عندي، بيوم عيد الميلاد وإنني لأستميحك العذر مرة أخرى، إذ أصر على تسمية هذه الأشياء التي لم تتجاوز حدود نفسي بالأحداث، فللعالم تاريخان: تاريخ أعمالنا وهو ذلك الذي ينقش على البرنز، وتاريخ أفكارنا وهو ذلك الذي لا يبدو أن أحدا يعنى به، وإن شئت الحقيقة فما قيمة أفعالي إذا لم تكن أفكارى إلا نكثا لها، وسخرية منها؟

قضيت الأيام الأربعة الأولى فى قلق متزايد، وكان المقام فى المنزل يؤلمنى لأسباب يسهل عليك حدسها.. كثرة الذكريات ونظرة تينك المرأتين، ومين وجهى وكلامى وحركاتى.

فكنت أخرج صباح كل يوم ولا أعود إلا بعد أن يتقدم الليل، ويحين وقت النوم وكانت أمى تقول كل مساء إن لانو أتى وانتظرنى ساعة أو ساعتين بغير أن يوضح غرضه من الزيارة.

وكنـت أقضى الليل علي أريكتي أدخن وأحارب شياطيني.
وفي صباح أمس الأول جرى بيني وبين أُمي حديث قاطع
أكان ذلك حديثاً؟ الحق أن أُمي تكلمت وحدها.

كنت موشكاً أن أخرج، وكانت مرجريت قد خرجت لتحضر
من المشغل عملاً، وأُمي ترتب المسكن فقالت:

- لويس ، اجلس لحظة بجانبى

وجلسـت، ولابد أن وجهى كان مغلقاً شاحباً تعروه التواءات
صغيرة غير إرادية لا أستطيع كبـحها، لقد كنت قلقاً مضنى فى
وقت معا، قالت لى أُمي:

- لويس ، ستبلغ الثلاثين بعد شهرين

ففهمت لتوى، وتكلمت أُمي نصف ساعة لقد أن أن أتزوج،
يجب ألا أتأخر فى الحصول على عمل، إن أُمي كانت مشغولة
بهذا الأمر أيضاً، لقد أن لى أن أختار رفيقا ، أليس على مقربة
منى..

أه ! يا أُمي ، ما أشد حبك لى! وما أحسن معرفتك بى! وما
أسوأ فهمك لى!

تركـتها تتكلم، وكانت تهز يدي برفق، فتسقطان لا حراك
بهما، فإذا ألحت على بالأسئلة هزرت رأسى ولم أجب.

ودق الجرس فأتجدنى، ودخلت مرجريت وسرعان ما تناولت
ملابسى وخرجت مبتدرا الباب، وأنا أنظر فى عبورى - بشيء
من الغيظ - إلى تلك الفتاة التى تحلم بأن تهب السعادة لرجل
مثلى.

وقد مضى على ذلك أكثر من ثمان وأربعين ساعة، ولم أعد
إلى المنزل، ولن أعود إليه، فما بقيت لدى قدرة على أن أعود.
كتبت لأمى كتابا لا يوضح شيئا، كيف توضح مثل هذه
الأشياء! كتبت إليها: «أمى، أنت لا تعلمين أى رجل أنا، فلا
تسألينى أن أعود إليك، ولا تطلبى منى أن أكون سعيدا»،
وأشياء أخرى كثيرة تافهة كهذه ، كانت ولا شك عذابا، ولم
توضح شيئا.

المؤلف

جورج ديهامل (١٨٨٤-١٩٦٦)

- روائى وكاتب فرنسى درس الطب ومارسه فى أواخر حياته، وكانت تجربته كجراح فى الحرب العالمية الأولى من أقوى الدوافع التى حفزته على الكتابة، كما كانت المعاناة التى شهدتها وراء عمله المهم «حياة الشهداء» (١٩١٦) الذى واجه فيه الجرائم التى تجرّها الحرب على الإنسانية. وفي كتابه «الحضارة» (١٩١٧) أكد على أن الحضارة الأوروبية كانت على حافة التمزق.

- عرف «ديهامل» كروائى بعد أن أصدر «اعترافات منتصف الليل» (١٩٢٠) وهو الجزء الأول من خمسة مجلدات بعنوان «حياة ومغامرات سلاقان» صدر آخرها عام (١٩٣٢)

- بعد روايتين هما «المهجورون» (١٩٢١) و«الأمير جعفر» (١٩٢٤) وكتابين تحليليين للاتجاهات العالمية السائدة يغلب

عليهما التشاؤم وهما «رحلة موسكو» (١٩٢٧) و«مشاهد من الحياة المستقبلية» (١٩٣٠) عاد «ديهامل» إلى كتابة رائعته الملحمية «حوليات أسرة پاسكوير» (١٠ مجلدات) (١٩٣٣ - ١٩٤٥) ، أما تجربته المريعة التي تحملها بكل كبرياء تحت الاحتلال الألماني فتعكسها بشكل إبداعى وفنى روايته «المنفى» (١٩٤٤)

المترجم

د. شكرى عياد (١٩٢١-١٩٩٩)

- مثقف مصرى بارز وأكاديمى اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة وعدد من الجامعات العربية ثم تفرغ للكتابة بدءاً من عام ١٩٧٧م .

- كتب الشعر والقصة القصيرة والرواية والسيرة الذاتية والمقال الأدبى والنقدى وترجم عددا من الأعمال النقدية والفكرية - حصل على جائزة الدولة للآداب فى مصر، وجائزة الكويت للتقدم العلمى وجائزة الملك فيصل فى المملكة العربية السعودية وجائزة العويس فى الإمارات العربية.

- من أشهر أعماله «البطل فى الأدب والأساطير» و«مدخل إلى علم الأسلوب» و«دائرة الإبداع» و«موسيقى الشعر العربى» و«العيش على الحافة» - سيرة ذاتية - و«الطائر الفردوسى» - رواية - و«تعليم بلا مدارس.. ومدارس بلا تعليم» وست

مجموعات قصصية، ومن ترجماته: «المقامر» لديستوفسكي
و«دخان» لتورجنييف و«الكاتب وعالمه» لتشارلز مورجان و«الأدب
والإنسان الغربي» لپريستلي.

رقم الإيداع : ١١٩٢٠ / ٢٠٠١

شركة الأمل للطباعة والنشر .
(مورافيتلى سابقاً)

اعتراف منتصف الليل

«..... وفي تقديري أن الدكتور شكرى
لم يتحمس لتعريب رواية جورج ديهامل
«اعتراف منتصف الليل» إلا لأنها استلت
خيطا عاديا من ملايين الخيوط التى تصنع
ذلك الكائن الهلامى الغامض الذى نسميه
الأمة أو الشعب أو الجماهير أو الطبقة
..إلخ، ثم عكفت على استخلاصه من بين
ملايين النكرات والكومبارس والكائنات
الأرقام لتكشف لنا عن ملامح تفرد، وهى
ملامح لن تراها عين لا ترى سوى المظهر
الخارجى لسلوك بطل الرواية الصامت
المنطوى الخجول، وإنما تكشف عنها حياته
الباطنية الحافلة بالانفعالات والأفكار
والهواجس والنوايا والاندفاعات الشهوانية
والمشاريع التى تختلط فيها الأحلام
بالأوهام» .

Bibliotheca Alexandrina



0423430



شركة الأمل

(مورافيتلى سابقا)